

محاضرات مجانية في الأخلاق الفلسفية



الدكتور اليماني الفخراني

كلية أصول الدين بجامعة الأزهر الشريف

القاهرة مصر

٢٠٢٣م - ١٤٤٤ هـ

محاضرات مجانية في الأخلاق الفلسفية

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الأولى :تعريف علم الأخلاق

تخضع التعريفات – غالباً- لمفهومين،أحدهما لغوي،والآخر اصطلاحي،فالمعنى اللغوي يعنى ببيان المراد من ظاهر اللفظ عند علماء اللغة فقط،أما المعنى الاصطلاحي فيعنى ببيان ما تواضع عليه أرباب العلم موضوع التعريف،من تحديد لهذا العلم تحديداً يجمع كل مسائله،بحيث لا يتخلف منها شيء،ولا يدخل فيه ما ليس منه من سائر المسائل.

التعريف اللغوي لعلم الأخلاق

أما في اللغة،فالمعنى اللغوي لكلمة الأخلاق هي أنها جمع خلق،ومن معانيه في اللغة:الطبع والسجية والعادة،فقد جاءت كلمة الخَلْق في أساس البلاغة بمعنى التقدير، واستعملت في القرآن مجازا بمعنى الإيجاد بتقدير وحكمة، يقال: رجل مختَلق أي: حسن الخِلْقَة، ويقال:رجل له خُلُق حسن وخليقة، وهي ما خلق عليه من طبيعته.وتخَلَّق بكذا وهو خليق لكذا كأنما خلق وطبع عليه،ويقال: امرأة خليقة أي: ذات خَلْق وجسم.إذن خلاصة معنى الخلق في الأساس: هو الخلق بحسن التقدير والحكمة، ويشمل الخلق على هيئة جميلة، ومن هنا استعمل للسلوك على نهج مستقيم جميل.

وجاءت كلمة الخُلُق في القاموس المحيط بمعنى السجية والطبع والمروءة والدين،والخلقة بمعنى الفطرة، والخَلْق بمعنى التقدير.

وفي لسان العرب الخلُق: الطبيعة وجمعها أخلاق، والخُلْق والخُلُق: السجية،وقال الخُلُق هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه وصف لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة.

قال ابن فارس:"الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء،والآخر ملاسة الشيء... ومن ذلك الخلق، وهي السجية، لأن صاحبه قد قدر عليه. وفلان خليق بكذا، وأخلق به، أي ما أخلقه، أي هو ممن يقدر فيه ذلك. والخلاق:النصيب ; لأنه قد قدر لكل أحد نصيبه.

ومن الباب رجل مختلق: تام الخلق. والخلق: خلق الكذب،وهو اختلاقه واختراعه وتقديره في النفس. قال الله تعالى: {وتخلقون إفكا} [العنكبوت:17].وأما الأصل الثاني فصخرة خلقاء، أي ملساء. " مقاييس اللغة (214/2)، مادة (خ ل ق)ابن فارس . المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر عام النشر: 1399هـ - 1979م. عدد الأجزاء: 6

وقال الراغب الأصفهاني:"الخلق والخلق في الأصل واحد... لكن خصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة". انظر: الذريعة إلى مكارم الأخلاق (ص39).و انظر كذلك: لسان العرب.(10/86)

من هذا العرض اللغوي للأخلاق من المعاجم التي ذكرناها والتي لم نذكرها يمكننا تلخيص ثلاثة معانٍ بارزة،تكاد تجمع هذه المعاجم عليها،الأول والثاني يتوجه كل منهما لجهة والثالث يجمع بين الجهتين .

الأول:الخُلُق يدل على الصفات الطبيعية في خلقة الإنسان الفطرية على هيئة مستقيمة متناسقة.

والثاني:تدل الأخلاق أيضا على الصفات التي اكتسبت وأصبحت كأنها خلقت مع طبيعته.

والثالث: أن للأخلاق جانبين: جانبًا نفسيًّا باطنيًّا وجانبًا سلوكيًّا ظاهريًّا.

التعريف الإصطلاحي

قال أبو عثمان الجاحظ: "إن الخلق هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد ، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعلُّم، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة. تهذيب الأخلاق (ص12).

وحول نفس المعنى يدور الغزالي في تعريفه فقال الأخلاق: "عبارة عن هيئةٍ في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة. إحياء علوم الدين (53/3). و انظر: التعريفات للجرجاني (ص104).

وقال الماوردي: "هي غرائز كامنة تظهر بالاختيار، وتقهر بالاضطرار" تسهيل النظر وتعجيل الظفر (ص5).

وهكذا فهناك تعريفات كثيرة قد اصطلح عليها،ولعل أشهرها وهو المتداول بين المؤلفين هو تعريف الجرجاني: الشريف علي بن محمد، حيث قال:"الخُلُق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال

بسهولة ويُسْرٍ من غير حاجة إلى فكروروّية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة،سميت الهيئة خُلُقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر خُلُقاً سيئاً. و إنما قلنا: إنه هيئة راسخة؛ لأن مَن يَصْدر منه بَذْل المال على الندور بحالةٍ عارضة، لا يقال خلقه السخاء، ما لم يَثْبُتْ ذلك في نفسه.وكذلك من تكلّفَ السكوت عند الغضب بجهدٍ أو رويّة لا يقال: خُلُقه الحلم.وليس الخُلق عبارة عن الفعل؛ فرب شخص خلقه السخاء، ولا يَبْذل: إما لفقْد المال، أو لمانع. وربما يكون خُلقه البخل، وهو يَبذل لباعثٍ أو رياء". التعريفات، للجرجانيّ: 101.

ولذا يمكن القول إنّ:الأخلاق هي مجموعة الكمالات المعنويّة والسّجايا الباطنيّة للإنسان،والأخلاق أحياناً تُطلق على العمل والسّلوك، الذي ينشأ من الملكات النفسانية للإنسان أيضاً،فالأولى الأخلاق الصفاتية والثانية السلوكيّة.

كما يمكن تعريف الأخلاق من آثارها الخارجيّة أيضاً،حيث يصدر أحياناً من الإنسان فعل اعتباطي ولكن عندما يتكرّر ذلك العمل منه:(مثل البخل وعدم مساعدة الآخرين)، يكون دليلاً على أنّ ذلك الفعل يمدّ جذوره في أعماق روح ذلك الإنسان، تلك الجذور تسمى بالخُلق والأخلاق.

وفي ذلك يقول "ابن مِسكَوَيه"،في كتاب "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق":إنّ الخُلق هو تلك الحالة النفسانيّة التي تدعو الإنسان،لأفعال لا تحتاج إلى تفكّروتدبّر". تهذيب الأخلاق، ص 51.

تعريف الأستاذ الدكتور/محمد عبد الله دراز:"الخلق هو قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير (إن كان الخلق حميداً)أو إلى اختيار ما هو شر وجور(إن كان الخلق ذميماً). دراسات إسلامية في العلاقات الدولية د/ محمد عبد الله دراز178.

وعليه فيمكن تقسيم الأخلاق قسمين:الملكات التي تنبع منها الأعمال والسّلوكيات الحسنة وتسمى "الفضائل"،وأُخرى تكون مصدراً للأعمال والسلوكيات السّيئة وتسمى الرذائل.

ومن هنا كانت التعريفات التي تعرف علم الأخلاق بأنّه: علمٌ يُبحَث فيه عن المَلَكات والصّفات الحسنة والسيئة و آثارها وجذورها،وبعبارة أُخرى: علمٌ يُبحَث فيه عن أسس اكتساب هذهِ الصفات الحسنة، وطُرق محاربة الصّفات السّيئة، و آثارها على الفرد والمجتمع .

فعلم الأخلاق مما سبق يُطلق على الأعمال والأفعال النّابعة من هذهِ الصفات أحياناً "الأخلاق" فمثلا الشّخص الذي يعيش في حالة من الغضب والحدّة دائماً،يقال عنه بأنّه ذو أخلاق رديئة،وبالعكس

عندما يكون الشّخص كريماً، فيقولون إنّ الشّخص الفلاني يتحلى بأخلاق طيّبة، وفي الحقيقة أن هذين الاثنين هما عِلّة ومعلول للآخر، بحيث، يطلق اسم أحداهما على الآخر.

وأما مفهوم الأخلاق لدى الفلاسفة الغربيين فتابع في مقوماته للاتجاهات التي يدين بها هؤلاء الفلاسفة، فكل يعرف الأخلاق ويحدد معناها وخصائصها وفقًا للاتجاه الفلسفي الذي يعتنقه، ونحن نعلم أن هناك اتجاهات فلسفية متعددة ومختلفة حول الأخلاق،مثل:

الاتجاه الاجتماعي والمثالي والتجريبي والو اقعي والعقلي والحدسي والنفعي، وما إلى ذلك، ولا أريد تفصيل القول في اتجاه كل فلسفة في الأخلاق،والتعريفات المختلفة لكل اتجاه ،فهذا موضعه دراسة أخرى بمشيئة الله عن الأخلاق الفلسفية ،لا الأخلاق الإسلامية موضوع هذا الكتاب .

ومن التعريفات اللغوية والاصطلاحية لعلم الأخلاق،يمكن القول إن مفهوم علم الأخلاق الإسلامية، ليس كسائر العلوم الإسلامية،فعلم الأخلاق الإسلامية ليس جزءا من نظام الإسلام العام، بل إن الأخلاق هي جوهر الإسلام ولبه وروحه السارية في جميع جو انبه، فالنظام الإسلامي بجو انبه المختلفة و أقسامه المتكاملة عموما مبني على فلسفته الخلقية أساسا،فهي الروح السارية في قلب أركان الإسلام المختلفة عقيدته وشريعته عباداته وأعماله.

ولا أدل ذلك من قول الرسول صلى الله عليه وسلم:"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" مسند أحمد بن حنبل ج 2 ص 381.، فقد قصر الرسول أهداف رسالته في هذا الحديث الشريف على الأخلاق، و أنه جاء ليتم البناء الأخلاقي الذي بدأت الرسالات السابقة به،وفيه إشارة إلى أن مكانة الأخلاق واحدة في كل الديانات السماوية.

كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر:"مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها و أكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع اللبنة،فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء". صحيح مسلم بشرح النووي جـ 15 ص 52 باب ذكر كون النبي خاتم الأنبياء.

إذن فهدف الرسالات الإلهية كلها هدف أخلاقي أيضا؛ لأنها تستهدف إرشاد الإنسان إلى طريق الخير و إبعاده عن الشر في الدنيا وسوء العاقبة في الآخرة،فمن تخبط في الدنيا بسوء أخلاقه فسوء مصيره معلوم في الدنيا قبل الآخرة وهذا هو موضوع الأخلاق كما بينا سابقا.

ولهذا قال الرسول:"الدين حسن الخلق" قال الحافظ العراقي في هامش الأحياء جـ3 ص 50 أخرجه المروزي في مسنده في كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلًا.. انظر علم الأخلاق لأرسطو جـ1 ص 131. ،وكانت عائشة تفهم هذا المعنى من الدين الإسلامي،ولهذا فهي عندما سئلت عن أخلاق النبي قالت:"كان خلقه القرآن". صحيح مسلم تحقيق عبد الباقي جـ1 ص 512-513، كتاب صلاة المسافرين.

وقد أجاد الماوردى حين نظر إلى الصورة الأخلاقية التي يرسمها الإسلام ويطالبنا بالتحقق بها فقال":فى الخلق العظيم ثلاثة أوجه:أحدها:أدب القرآن،والثاني:دين الإسلام،والثالث:الطبع الكريم وهو الظاهر. قال:وحقيقته الخُلُق ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب ، سمى بذلك لأنه يصير كالخِلْقه فيه". تفسير الماوردى (النكت والعيون) أبو الحسن البصري الماوردى (62،61/6)،دار الكتب العلمية .

فإذا كانت الأخلاق هي الإسلام،وهي التطبيق العملي له الذي مثله رسول الله صلى الله عليه وسلم،فإن علم الأخلاق لا بد له من تمييز يميزه عن سائر العلوم بحيث يسهل على من أراد أن يتحلى بهذا العلم وبسلوكه أن يجد مرشداً يهديه في حياته،ومن هنا يمكن القول:علم الأخلاق الإسلامية هو علم الخير والشر والحسن والقبح،القائم على القرآن والسنة وهدي الصحابة والسلف وفهم عباقرة الأمة،والدليل على ذلك كثير في القرآن والسنة؛ إذ جاءت كثير من الآيات والأحاديث تبين أين الخير والشر و أين الحسن والقبح؟.وتعرفها أحيانا بالمعروف وأخرى بالمنكر والنفع والضر. بتكامل الجانب النظري مع الجانب العملي منه .

وهذا التكامل النظري والعملي يهدف لتنظيم الحياة من الناحية العملية من أجل الحياة الخيرة مع الغير أيا كان هذا الغير إنسانا كان أم حيوانا أو غير حيوان من حيث ما ينبغي أن يكون عليه هذا السلوك كسلوك إنساني تجاه الغير، وذلك بناء على مكانته في الكون ومسئولياته التي يجب أن ينهض بها، وبناء على ما وضع له خالقه من أهداف في هذه الحياة،فالأخلاق الإسلامية شملت الإنسان والحيوان والجماد.

موضوع علم الأخلاق

موضوع الأخلاق:سلوك الإنسان و أفعاله الصادرة عنه بإرادة مباشرة وما يصدر عن الإنسان بدون إرادة منه لا شأن لعلم الأخلاق به،أو ما يصدر عن الإنسان بالواسطة، ومرادنا بالواسطة هنا أن علم الأخلاق يدين المخطئ إذا قصر وأهمل الاحتياط والتحفظ،طبعاً مع قدرته عليه حيث لا تقصير مع العجز،وعلى هذا فجميع الأعمال الإنسانية التي تصدر من الإنسان،وليست على هذا النهج،وليست

داخلة في علم الأخلاق .كالتنفس ونبض القلب وأعمال الدورة الدموية وغيرذلك من الأعمال الآلية التي تصدرعن الإنسان في جميع أحواله .

الغاية من دراسة الأخلاق وأهميتها

إذا كانت الغاية من علم النحو صون اللسان عن الخطأ في المقال،ومن علم المنطق صون الفكر عن الخطأ في الأحكام،فإن الغاية من علم الأخلاق صون الإنسان عن الخطأ في سلوكه بحيث يكون مستقيماً في قصده وفعله وغرضه بعيداً عن الهوى والتقليد الأعمى، وبكلمة فإن الغاية من كل علم ما عدا علم الأخلاق أن نبتعد عن الخطأ في مسائله وقضاياه.

أما الغاية من علم الأخلاق فهي:أن يوجد مجتمع يسود فيه العدل والأمن والتعاون على صيانة الحياة من المفاسد والمظالم،ومن كل ما يشقيها ويرهقها،والسيربها إلى الأكمل والأفضل،نحو بناء دولة العلم والإيمان،تسودها الأخلاق الحسان،أملا في الفوزبجنة الرضوان.

ومعنى هذا أن علم الأخلاق يتوخى إصلاح الفرد والجماعة بملازمة الصراط المستقيم في السلوك،ومنه لإصلاح الدولة فالأمة العربية فالأمة الإسلامية فالعالم بأسره،وهكذا تتحقق أستاذية العالم .

أهميّة الأخلاق

إن للأخلاق الفاضلة أهمّيةً عظمى في حياة الإنسان سواءٌ بالنسبة له،أو بالنسبة للمجتمع الذي يعيش فيه،أهميةً تفوق الحاجة إلى الطعام والشراب، ذلك أنه بهذه الأخلاق يعيش حياته السعيدة في الدنيا،ويصيرإلى حياة أسعد في الآخرة. وإن الإنسان بدون مكارم الأخلاق يصبح عديمَ الخيروالفائدة كثيرَ الشرّوالضرر.

ولمحاسن الأخلاق في الإسلام مكانةٌ فريدة لم يصل إلها دين من الأديان،أو منهج من المناهج،وقد بلغ بها الإسلام من المكانة أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن مِن خياركم أحسنكم أخلاقاً" أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم،برقم3366. ومسلم، في الفضائل، برقم682321.. وقال أيضاً: "إنّ مِن أحبِّكم إليّ أحسنَكم أخلاقاً" أخرجه البخاري، في فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه رقم3549. .وقال أيضاً: "اتّقوا النارولو بِشِقّ تَمْرَة، فإن لم

تجد،فبكلمة طيِّبة" صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد. برقم1347، و1351، ومواضع أُخر. وأخرجه مسلم، في كتاب الزكاة، برقم66-681016.؟؟.فالأخلاق في الإسلام هي معيار التفاضل بين الناس،كما أنها حجاب من النار.

ونظراً لهذه الأهمية،ونظراً لطبيعة الأخلاق،فإن الكتابة فيها تبقى متجددة على الرغم مما كُتب فيها؛فطالما أن موضوع الأخلاق متشعبٌ بتشعّب الحياة،متجدد بتجددها،فإن الحاجة إلى الكتابة في هذا الموضوع تبقى متشعبة متجددة أيضاً،رغم وجود عدد من الدراسات السابقة،إلا أن هذه الدراسات السابقة قد تفاوتت تفاوتا كبيراً،الأمر الذي جعلني أختار درة ثمينة من بين الدرر التي كتبها الإمام محمد عبد الله دراز،وهي"كلمات في مبادئ علم الأخلاق"لأقوم بالتقديم لها ،ومراجعة أصلها،فلم أجد ضمن الكتب المقررة التي يدرسها طلاب كلية أصول الدين ما يقترب ولو من بعيد بهذه الرسالة الدرازية،سوى العناوين فقط،وهي التي كان يقوم فضيلته بشرحها على طلاب كلية أصول الدين في الخمسينيات.

المحاضرة الثانية .

مصادر الأخلاق الإسلامية

مصدرعلم الأخلاق الإسلامية:كتاب الله، وسنة نبيه، وآله الأطهار، والعقل، والمشاهدة والفطرة، وبعض الكتّاب يعبر عن الفطرة بالجهاز الدقيق الموجود في داخل الإنسان يدرك تلقائياً الكثير مما يصلحه ويسعده ولا يُشقيه ويفسده كحبه للحرية والمساواة وكراهيته للعبودية والمحاباة،ورغبته في كل ما يوفر له الحياة الفضلى ويجعله شيئاً مذكوراً،وبعض المؤلفين يسمي هذا الجهاز بقانون القلب الذي يدرك الشيء تلقائياً،في مقابل قانون العقل الذي ينتقل من مجهول إلى معلوم، من شاهد إلى غائب.

الأخلاق الإسلامية آداب ربانية،بمعنى أن الوحي الإلهي هو الذي وضع أصولها وحدد أساسياتها،فالقرآن يحتوى على آيات تتصل بأحكام العقيدة والأخلاق،والأعمال الصادرة عن المكلف وتسمى بالأحكام العملية وتنتظم على فرعين:العبادات والمعاملات ولذلك كان القرآن هو المصدر الأساسي للإلزام الأخلاقي .

فالقرآن يعتني ويهتم بتوضيح السمات الأساسية لخلق المسلم،من الإحسان بالوالدين، وبذوي القربى،ورعاية اليتيم،وإكرام الجار ذي القربى والجار الجنب، والصاحب بالجنب،و ابن السبيل،والخدم

والعناية بالفقراء والمساكين وتحرير الرقاب، والصدق في القول والإخلاص في العمل،وغض البصر وحفظ الفرج،والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والتواصي بالرحمة، والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،وأداء الأمانات إلى أهلها،واجتناب الموبقات من الشرك والسحر والقتل والزنا والسكر والربا وأكل مال اليتيم،وقذف المحصنات المؤمنات،والتولي يوم الزحف، وغيرها من كبائر الإثم وفواحشه إلى غير ذلك من الأخلاق الإيجابية والسلبية الفردية والاجتماعية

طرق اكتساب الأخلاق

أهم طرق اكتساب الأخلاق الحميدة ما يلي:

1- معرفة الأحكام الشرعية في المعاملات وأحكام الأخلاق واستحضار وجوب الواجب وحرمة الحرام؛ فإن هذا هو الوسيلة الأهم في الموضوع.

2- التدريب العمليّ والرياضة النفسية. 3- الحياة في بيئة صالحة. 4- القدوة الحسنة. 5- الضغط الاجتماعيّ من قبل المجتمع المسلم. 6- سلطان الدولة المسلمة. 7- التعرف على القواعد الأخلاقية وعلى أهمية الأخلاق الفاضلة وعلى أهمية تحصيلها،ووسائله، والتعريف بها. 8- التعرّض لتربية المربين، وقبول ما عندهم من الخير ومكارم الأخلاق. 9- اتّخاذ أخٍ صالح ناصح متحلٍ بالأخلاق الحميدة يُنبّه على أخطائه في السلوك والخُلُقِ،ويساعده على إصلاح نفسه..

وكما يقال:من رام حياة سعيدة فليختر خير من يقتدي بهم وليكد حتى يكون قد ساواهم ،وقد خلص الدكتور/محمد يوسف موسى إلى القول:"وخلاصة القول،أنه بالقدوة والوعظ والإرشاد الحكيم،وقص سير كثير من أبطال التاريخ،كعمر بن الخطاب وما عرف به من شجاعة نادرة أبت عليه أن يتسلل لواذا مهاجرا للمدينة،وعدل شامل لا يستثنى فيه أحدا،ومثل حاتم الطائي في بذله وكرمه الذي سار مع الريح،ونابليون الذي لم يعرف العجز ولا المستحيل في حياته- بهذه الوسائل مجتمعة يستطيع المربي أن يغرس في الطفل ما يشاء من عادات طيبة،وأن يكون أخلاقه تكويناً فاضلاً كما يريد". مباحث في فلسفة الأخلاق د/محمد يوسف موسى ص 97 مطبعة الأزهر 1943م

وإن كنت أخالفه في الاقتداء بنابليون،فالقرآن علمنا أن اليأس من صفات الكافرين، فكيف نصف نابليون بعدم معرفة المستحيل في حياته.

الأسس التربوية العامة لتقويم الأخلاق:

من أهم الأسس التربوية العامة لتقويم الأخلاق ما يلي:

1- التدرج في البناء التربوي؛لأن التربية ليست عملية تحويل مفاجئ دفعة واحدة.

2- معاملة كل نموذج طبعيّ بما يناسبه ويلائمه من وسائل التربية،ومعاملة كل حالة نفسية بما يلائمها،لأن طبائع الناس وحالاتهم النفسية مختلفة، فلا بدّ من مراعاة ذلك في طريقة التربية والتعامل معها،والنبي صلى الله عليه وسلم قد أعطى أُناساً من غنائم حنين وترك آخرين، مراعاة لهذا الأصل. 3- تصيُّد المناسبات الملائمة للتوجيه التربويّ. 4- الرعاية الشجرية،فالشجرة إذا تُركت وشأنها نمتْ نموّاً عشوائياً، بخلاف ما إذا امتدتْ إليها يد الرعاية بالسقي المستمر والتهذيب، فإنها تنمو نمواً آخر. وهكذا الطبائع البشرية تحتاج إلى مثل هذه الرعاية حتى لا تنشأ نشأة فوضوية عشوائية.

5- التوجيه والتحويل، والمقصود توجيه الطبائع البشرية وتحويلها نحو الخير،وليس القضاء عليها.

6- التصعيد،وهو نوع من التوجيه والتحويل،والمقصود به:تحويل التطلع الإنساني عن الصغائر والدنايا،وتوجيهه نحو معالي الأموروما فيه سعادته في الدنيا وفي الآخرة.

7- المزاحمة والتضمير،وذلك بغرس العنصر المزاحم للطبع أو العادة غير المناسبين،عن طريق تكوّن العادة المطلوبُ تربيته عليها.8- إيجاد الحافز الذاتي، الذي يدفع صاحبه إلى التحلي بمكارم الأخلاق.

ولإيجاد الحافز الذاتي عدة طرق،منها:

أ- طريق الإيمان بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره. ب- طريق استشعار الأحكام الشرعية، وأنها أحكام الله تعالى، وما تؤول إليه عاقبة إتباعها أو مخالفتها من جنَّة أو نارٍ. ت- طريق الإقناع الفكري. ث- طريق الترغيب والترهيب.

ج- طريق تربية الوجدان الأخلاقي. وليس المقصود التخيّر من هذه الطرق،وإنما الأخذ بها كلها. يُنظر عبد الرحمن حبنكة: 184/1 - 196.

العلاقة بين العقيدة والأخلاق

هناك صلة وثيقة تربط الأخلاق بسائر العلوم الأخرى،علمها من علمها وجهلها أو تجاهلها من جهلها،وقد تحدث الدكتور/محمد يوسف موسى في كتاب "مباحث في فلسفة الأخلاق"وتابعه

الدكتور/محمد عبد الستار نصار في كتابه"دراسات في فلسفة الأخلاق"،ولكن العلاقة بين الأخلاق والعقيدة لم تحظ بالعناية اللائقة بها في البحث والدراسة .

إن موضوعات العقيدة الإسلامية تنقسم ثلاثة أقسام:الإلهيات والنبوات والسمعيات، وهذه الأقسام الثلاثة تسري في أعماقها روح الأخلاق.

فالإلهيات ومن أهم مباحثها :الإيمان بالله تعالى،وهذا الإيمان يتضمن بالضرورة إيماناً بصفاته،وصفاته تعالى قيم يمكن أن تكون أمام الناس معاييراً للسلوك. فإذا آمنت بالله العليم القادر المريد البصير السميع..وجب أن يكون في الوقت نفسه إيماناً بضرورة العلم والقدرة والإرادة والإيمان بحقائق الأمور عن طريق البصر والسمع،وبهذا يكون إيمانك دفعة دينامية نشيطة ساعية.

وهكذا فمن ناحية الإيمان بالله فإن المسلم عندما يمارس الأخلاق الفاضلة ويجتنب الأخلاق السيئة يعتقد ويؤمن أن الله أمره بذلك فيمارسها على أنها جزء من إيمانه بالله أو أنها من لوازم إيمانه بالله وأن الله فرض عليه ذلك وألزمه به.

والنبوات ومن أهم مباحثها صفات الأنبياء وعصمتهم،والتشبه بهم وبأخلاقهم المثالية،ولا عجب فمن أهم وظائف الرسل عليهم السلام،تهذيب الأخلاق وتثقيف النفوس بحملها على الأعمال الصالحة بباعث الإيمان بالله و ابتغاء مرضاته.

وهكذا فمقتضى الإيمان برسول الله-صلى الله عليه وسلم- امتثال ما أمر به من الفضائل والابتعاد عن ما نهى عنه من الرذائل، بل ويمارس الأخلاق أيضاً على سبيل الاقتداء بنبيه المعصوم الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق،فتممها على أحسن وجه و أكمله،وكان خلقه القرآن،صلوات الله وسلامه عليه،كما أخبرت بذلك رفيقة دربه السيدة عائشة رضي الله عنها.

والإيمان باليوم الآخر والخوف مما فيه من العقوبة والرغبة،فيما للمحسن من المثوبة،وبيان ما فيها من المنافع والمصالح،له أكبر الأثر في تعديل سلوك الشخص للأفضل،ولا شك أن هذه الطريقة في التهذيب هي الطريقة المثلى؛فإن الأعمال هي التي تطبع الملكات والأخلاق في النفوس،فالإنسان لا يستقل بنفسه،ولا يهتدي بعقله المجرد،ويصل بسعيه إلى التهذيب الذي يصلح به حال الأفراد وحال المجتمع،إلا بتأييد الهدى الإلهي لأن الحظوظ والرغائب والأهواء تحسن القبيح وتقبح الحسن،و إننا نرى الناس بعد أن وُجد فيهم الإرشاد الديني وأمدَّه العلم الاختباري تفسد أخلاقهم بضعف الاعتقاد بالدين فيهم.

فصاحب العقيدة الصحيحة يمارس الأخلاق الفاضلة مؤمناً ومعتقداً بأن الله مطلع عليه ومراقبه في كل لحظة،وسيثيبه عليه أجراً عظيماً،وأنها سبيل إلى الجنة،وفي الحديث (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البروإن البريهدي إلى الجنة،وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا..).

بل صاحب الأخلاق الخيرة يعتقد اعتقاداً جازماً أنها سبب للقرب من الرسول–صلى الله عليه وسلم-في الجنة ففي الحديث:(إن من أحبكم إلي و أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا..) ويبتعد المؤمن عن كل خلق ذميم ودنيء لأنه سيعاقب عليه يوم القيامة، وقد يكون سبباً لدخول النار- والعياذ بالله،ففي الحديث (..و إياكم والكذب،فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجوريهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً).

كما أن الأخلاق الذميمة سبب للبعد عنه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، ففي الحديث :(إن أبغضكم إلي و أبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون..).

ومن هنا فإذا كانت العقيدة أو الإيمان هو:التصديقٌ بالجنان،والقولٌ باللسان،والعملٌ بالأركان، فإن الأخلاق وهي هيئة راسخة في النفس شيء داخلي مثل التصديق العقدي فهو شيء داخلي،يعبر عن الهيئة الراسخة للأخلاق الباطنية ،كما يعبر عن التصديق العقدي الباطني، المظهر الخارجي لكل منهما، وهذا المظهر الخارجي لكل منهما القول باللسان والعمل بالأركان.وهذا يوضح مدى العلاقة المتينة والصلة الوثيقة بين العقيدة والأخلاق.

فلا عجب بعد ذلك أن يكون الإيمان هو القوة الباعثة على المعالي،والفضيلة الرادعةٌ عن الدنايا،والداعية المُحَرِّضَةٌ على المَكْرُمَات،والمبشرات الواعدة بالجنات، والمنذرات الناهية عن الفِعَالِ القبيحات .

لذلك نجد في كتاب الله تعالى،وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم استفتاحاً بالإيمان عند الحثِّ على فعل الصالحات،واستهلالاً بالإيمان عند النهي عن السيئات؛هذا الاقتران الذي نجده في الكتاب والسنة يجعلنا نوقن بالعلاقة الوثيقة بين الإيمان والأخلاق.

فمن الاستهلال بالإيمان قبل الأمربالأخلاق الحميدة كفضيلة العدل مثلاً:في قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(المائدة:8.

وكالاستهلال بالإيمان قبل ذكر فضيلة الصدق،كما في قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا اتقوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} (التوبة:119).وهكذا الكثير والكثير من الآيات التي تستهل الحديث عن الفضائل الأخلاقية بتذكير المخاطبين بهذه الفضائل بعقيدتهم و إيمانهم.

وعلى نفس ما جاء في القرآن الكريم، جاءت السنة النبوية شارحة لنا وموضحة الصلة المتينة والعلاقة الراسخة بين العقيدة أو الإيمان بالأخلاق، كما ورد عن أبي هريرة -رضي الله عنه– قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم:"الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان "- متفق عليه وهذا الحديث تتجلى فيه الصلة الوثيقة بين العقيدة أو الإيمان بالأخلاق،فالإيمان عبارة عن شرائع الدين كلها، سواء كانت أعمالاً بالقلب، أم بالجوارح، أم باللسان.

وهكذا يدلنا هذا الحديث الشريف على أن أعلى شرائع الإيمان وفرائضه شهادة ألا إله إلا الله بإخلاص ويقين.وأن "إماطة الأذى" عن طريق الناس من الإيمان،وأن "الحياء" من الإيمان،وهو خلق يحجز الإنسان عن فعل الرذائل وارتكاب القبائح.

و أيضاً يدلنا هذا الحديث الجامع لجوامع الكلم أن تفاوت الأعمال الصالحة في مراتبها من الإيمان، فمنها ما يكون في أعلى مراتب الإيمان كشهادة التوحيد،ومنها ما يكون في أدناها كإماطة الأذى عن الطريق، وما بين أعلى الإيمان وأدناه شعب متعددة.

ومن زاوية أخرى، فإذا كانت الأعمال الصالحة ثمرة من ثمرات العقيدة وإيجابية من فضائل الإيمان،كانت الأخلاق السيئة أمارة على ضعف الإيمان أو حتى عدمه،ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر.

فنرى منافاة السخرية والاستهزاء للإيمان:في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الحجرات:11).

كما نرى منافاة سوء الظن والتجسس والغيبة للإيمان:كما في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}(الحجرات:12).

وجاءت السنة وهي الترجمة العملية للقرآن الكريم،فنرى منافاة الكذب والإخلاف والخيانة للإيمان:كما في قوله –صلى الله عليه وسلم:"آية المنافق ثلاثٌ؛إذا حدّث كذب،وإذا وعَدَ أخلف، وإذ ائتمن خان" متفق عليه.

وقوله صلى الله عليه وسلم :"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره" رواه البخاري. ويقول أيضاً: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل: من يا رسول الله؟ قال : الذي لا يأمن جارُه بوائقه أي أذاه". رواه البخاري.

هذا غيض من فيض يدل بما لا يدع مجالاً للشك على الصلة الوثيقة والعلاقة المتينة بين العقيدة والأخلاق،وأن الإيمان وتغلغله في القلب حتى صار عقيدة لا تنفك عنه،هو مناط تكوين القيم الخلقية والاجتماعية ونحوها،وهو أيضا مصدر الإلزام الخلقي،لأنه هو المسيطر على كل غرائز الإنسان وشهواته،والمتحكم في أحاسيسه ودوافعه،وهو الرقيب الذي لا يفارق النفس السوية.

وهكذا نرى أن الأخلاق هي المظهر الخارجي للعقيدة،كما أن العقيدة هي الأخلاق من داخل، فالأخلاق هي العقيدة من خارج،فإذا كانت العقيدة أو الإيمان هو التصديق بالقلب،والقول باللسان ،والعمل بالأركان،فإن الأخلاق هي هيئة راسخة في القلب أيضاً ،تظهر حسنها أو قبحها في أقوال اللسان،وعمل الجوارح.

المحاضرة الثالثة :مصادر الأخلاق الفلسفية

علمنا في المحاضرة السابقة أن مصادر الإلزام في الأخلاق الإسلامية هو القرآن والسنة والإجماع ،ونؤكد هنا أن مصدر الإلزام في الأخلاق الفلسفية إنساني بحت ،وقد تنوعت أقوالهم وهم يتحدثون عن مصدر الإلزام الخلقي،فمنهم من قال: إن مصدر الإلزام الخلقي إنما هو (العقل) فهو الذي يشرع وهو الذي يتوجه للمكلفين بالإلزام ،وهو الذي يحاسبهم على التقصير،ومنهم من قال : إن مصدر الإلزام الخلقي هو(الضمير) إذ هو وحده المسؤول عن وضع النظام الأخلاقي وهو وحده الذي يحمل صاحبه على اتباعه . ومنهم من قال : إن مصدر الإلزام الخلقي هو (المجتمع)متمثلاً فيما يعرف عند الفلاسفة باسم العقل الجمعي ،هذا العقل الذي تكوّن من ائتلاف الجماعة ، وتغذى على مالها من عوائد وأعراف . وفي النهاية يجمعهم جامع واحد وهو: أن الملزم في مجال الأخلاق والمكلف في مجال الآداب لا يخرج عن كونه موجوداً إنسانياً

خصائص المنهج الأخلاقي في القرآن

الأخلاق في القرآن،تمثل منهجاً متكاملاً ، له مميزاته وخصائصه التي يتفرد بها دون سائر المناهج والأنظمة والقوانين ، ذلك أن القرآن:كلام الله تعالى،الذي قال:{ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير}وغيره من المناهج والمبادئ كلام البشر، الموصوفين بقول الله تعالى:{إنه كان ظلوماً جهولا} الأحزاب:72.

ولذا فتتلخص خصائص المنهج الأخلاقي في القرآن فيما يلي:

1-أن مصدره الوحي، واستمداده من القرآن والسنة ، فهو محفوظ من كل نقص أو عيب أو خلل {نقص أو عيب أو خلل:{ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}.الحجر:9.

2- -أنه شامل لجميع أنواع الأخلاق ، وجميع جوانب الحياة ، فهو مرتبط بجانب العقيدة والعبادة والمعاملات ونحوها- كما تقدم -ويصدق هذا قوله تعالى:{ما فرطنا في الكتاب من شيء}. الأنعام:38.

3- أنه عام لجميع البشر، صالح لكل زمان ومكان ، ولكل فرد ومجتمع وأمة،لأنه الدين الذي ارتضاه الله للعالمين ، قال تعالى:{ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}.المائدة:3،وقال :{تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً}الفرقان:1

4 -أنه منهج وسطي، فهو يراعى مصلحة الفرد والجماعة ، ويلبي حاجات الروح والجسد والعقل ، ويوازن بين طلب الآخرة وعمارة الأرض في الدنيا ،وهكذا ، دون تغليب لجانب على آخر ، وتصور هذه الوسطية آيات كثيرة من كتاب الله ، كقوله تعالى: { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) }القصص:77..وقوله تعالى:{ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) }الإسراء:29

5 -أنه منهج ثابت القيم ، أصيل المبادئ ، لا تتغير قواعده المنهجية ، ولا تقبل التبديل أو الاجتهاد ، ولا تخضع للمصالح الشخصية والأهواء الفردية ، ومع ذلك فهو منهج مرن بما تقضيه المصلحة الشرعية ، قال تعالى:{ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم}الروم:30.

6-أن المسئولية فيه لها جانبان : مسؤولية شخصية ، قال تعالى:{كل امرئ بما كسب رهين} الطور:21. ومسئولية جماعية ، قال تعالى:{ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة}. الأنفال:25.

7- أنه يترتب عليه جزاء دنيوي وأخروي ، وعقاب في الحياتين للمخالفين، قال تعالى في جزاء الأبرار:{ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}النحل:97.وقال سبحانه في عقاب الفجار:{فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون}.البقرة:85.

8 -أن الرقابة منه رقابة إلهية ربانية ، فالرقيب على أداء هذه الأخلاق ، هو الله عز وجل،الذي قال:{ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى}.طه:7

وقال:{ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه}.يونس:61.

9 -أنه منهج و اقعي ، يمكن تطبيقه في حياة الناس،والعمل به دون عنت أو مشقة،ولا يطلب من البشر ما لا يطيقون قال تعالى:{ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها}.الطلاق:7.

10-أنه سهل ميسر في الجانب العملي،غايته التخفيف ورفع الحرج عن الناس،قال تعالى:{ وما جعل عليكم في الدين من حرج}الحج:78.وقال:{ يريد الله أن يخفف عنكم}النساء:28. دستور الأخلاق في القرآن الكريم 53- 96وغيرها .المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم د/ يحي زمزمي .25- 27.

المسؤولية

ويبقى هنا أن نسجل ملاحظة أخيرة وهي: أن المسئولية الخلقية استعداد فطري يجده كل إنسان من نفسه، بل إننا إذا أردنا أن نكون أكثر وضوحًا فإننا نقول: إن المسئولية الأخلاقية إنما هي استعداد فطري يميز الإنسان عن غيره باعتبار آخر غير الذي ذكرناه قريبًا.

وهذا الاعتبار الآخر هو أن الإنسان كائن متطور بمعنى أنه قد ارتكز في فطرته أنه لا يثبت على حالة بعينها ومرحلة قد أدركها من مراحل التطور؛ لأن ثباته على حال يفقده أهم مميزاته ككائن صاعد من السفح الهابط إلى القمة السامقة.

إن حالة الإنسان تشبه ببساطة حالة أحدنا يريد أن يقطع طريقًا طويلًا من غير أن يشعر بالملل فيأخذ في يده كرة يدفعها إلى الأمام ثم يجري خلفها ليدركها، فإذا ما أدركها على نهاية المرحلة

-١٠٨-

==

التي قطعتها من الطريق دفعها أمامه مرحلة أخرى جديدة فإذا ما أدركها دفعها ... وهكذا إلى أن يصل إلى غاية مراده من قطع الطريق.

إن هذه الحالة تشبه حالة الإنسان في تفعيله لهذا الركن من أركان الأخلاق وهو: «المسئولية».

إن هذا الشعور الفطري يحمل الإنسان المكلف على استمراره في قطع الطريق في الارتقاء نحو القمة؛ لأنه يشعر أنه إذا مر عليه يوم لم يكتسب فيه علمًا، أو يفعل فيه خيرًا، أو يدافع فيه عن أرض أو عرض أو حياة، فإنه يستحيي أن يحسبه من عمره.

==

كلمات في مبادئ علم الأخلاق لفيلسوف الأخلاق العلامة محمد عبد الله دراز

الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الله دراز من أسرة عريقة في العلم والجاه،فوالده الشيخ الأزهري الجليل عبد الله دراز الفقيه اللغوي المعروف (شارح كتاب المو افقات لإمام الشاطبي)وكان هذا الشرح أحد المنابع العلمية في أصول الفقه عند الدكتور محمد عبد الله دراز.

ولد الدكتور محمد عبد الله دراز في قرية محلة دياي إحدى قرى مركز دسوق بمحافظة كفر الشيخ في عام 1312هـ المو افق 8 نوفمبر 1894م، حفظ كتاب الله تعالى قبل العاشرة من عمره على يد والده والتحق بالأزهر الشريف بعد أن استظهر بعض المتون العلمية الذائعة في عصره ،وقد ظهرت آيات عبقريته من نتائج امتحاناته السنوية التي نالها من الأزهر الشريف .

ومن يتأمل في درجاته في مادتي السلوك والمواظبة- التي نشرها مشكورا الشيخ أحمد فضلية – لا يعجب حين يرى هذا الطالب بعد ذلك هو الفيلسوف الأخلاقي الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، فقد حصل في سنوات دراسته على الدرجة النهائية في مادتي السلوك والمواظبة وكذا سائر المواد،وإن تعجب فالعجب من وضع نتيجة مادتي السلوك والمواظبة في شهادة الثانوية التي حصل عليها بجانب ترتيبه الأول على الدفعة،وهذا يظهر من خلال صورة شهادة الثانوية التي ذيل بها الشيخ أحمد فضلية كتابه "الإمام المجدد محمد عبد الله دراز سيرة ومسيرة" وهذا مؤشر لضرورة الاهتمام بالسلوك والمواظبة للناشئة بعد أن ألغيت تلك المواد في مناهج التعليم .

في عام 1908م نال الشهادة الابتدائية من معهد الإسكندرية الديني .وفي عام 1912م نال الشهادة الثانوية من معهد طنطا الديني .ثم نال شهادة العالمية سنة 1916م وكان ترتيبه الأول على دفعته ،وعين مدرسا بالأزهر في السنة نفسها ...

كما لم تشغله الدراسة العلمية وتعلم اللغات عن المشاركة في هموم وطنه فقد اشترك في ثورة 1919م حيث كان يكتب المنشورات بالفرنسية ويوزعها على السفارات الأجنبية وينشرها في الصحافة الفرنسية التي من اهتماماتها نشر جرائم الإنجليز في مصر ليس حبا في مصر ولكن بغضا في الإنجليز

في عام 1928م انتقل للقاهرة حيث اختاره الإمام الأكبر الشيخ المراغي للتدريس بالقسم العالي ، ثم في قسم التخصص 1929م ، ثم في الكليات الأزهرية الناشئة 1930م مع شقيقه الشيخ عبد المجيد عبد الله دراز.

في عام 1936م سافر لأداء فريضة الحج ، وقد شاع فضله فرشحته مواهبه وعبقريته الممنوحة له من مولاه لعضوية البعثة الأزهرية إلى فرنسا في مايو من العام نفسه بجامعة السوربون ، فكان في طليعة أبنائها فهماً وأصالةً . و في عام 1939م عقد مؤتمر الأديان بباريس، وشاء الله تعالى أن يختاره الإمام المراغي ليكون ممثلا للأزهر الشريف في هذا المؤتمر العالمي.

في عام 1940م حصل الدكتور دراز على درجة الليسانس من كلية الآداب بجامعة السوربون .وفي عام 1947م نال دكتوراه الدولة من السوربون بمرتبة الشرف الأولى ولم تعقه ظروف الحرب العالمية الثانية من الجد وطلب العلم .في عام 1949م عاد إلى مصر.في عام 1949م نال عضوية كبار العلماء ، وندب لتدريس تاريخ الأديان بكلية الآداب جامعة القاهرة ، وفلسفة الأخلاق بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر،ثم لتدريس التفسير بالكليات المختلفة .

في عام 1950م شارك ممثلا الأزهر في مؤتمر الشريعة في باريس .في عام 1951م شارك ممثلا الأزهر في مؤتمر الجامعات بمدينة نيس الفرنسية .في عام 1958م شارك ممثلا الأزهر في مؤتمر الأديان بلاهور باكستان، وفي أثناء هذا المؤتمر لقي ربه .

تتلمذ على يد والده وعلى تراث الإمام محمد عبده ومدرسته ،فكان الدكتور دراز من أقطاب تلك المدرسة تلميذا وأستاذا ،متعلما ومعلما ،نعمت المدرسة تلك ونعم طلابها ومعلموها .

لقد كان بحق عالم العالم ،وشيخ الدنيا ،ومقنع أهل الأرض ،قريع العصر، العديم المثل ،المفقود الشكل .كما كان عالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق والفلسفة ؛إلا أنه لم يسلك طريقة واضع المنطق ولا الفلاسفة ؛بل أفرد صناعة ،وأظهر براعة ،وقد عمل فى القرآن كتبا نفيسة لا نظير لها ،وفي

السنة كتابا لا نظير له في اختيار موضوعاته وطريقة تناوله لتلك الموضوعات ،هذا مع الدين الثخين ،والعقل الرزين .

إن شيخنا الأستاذ الدكتوردرازغزير البحر ،واسع الصدر ،لا يغلق عليه فى الأمورالروحانية ،والأنباء الإلهية والأسرار الغيبية ، له مدد من الله ،وهو طويل الفكرة ،كثير الوحدة ، وقد أوتي مزاجا حسن الاعتدال ،وخاطرا بعيد المنال ،ولسانا فسيح المجال وفصيح العبارة.

مؤلفات الأستاذ الدكتورمحمد عبد الله دراز

1- "المختار من كنوز السنة" .2-"المدخل إلى القرآن الكريم" 3-"دستور الأخلاق في القرآن" وهي أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه من السوربون ترجمها د عبد الصبورشاهين . 4- الدين "بحوث ممهدة لدراسة .5- النبأ العظيم " نظرات جديدة في القرآن الكريم 6-"دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية" .7-"نظرات في الإسلام 8- "الصوم تربية وجهاد" 9- "حصاد قلم" . 10-"حول رسالة دستورالأخلاق في القرآن" 11-"أوراق محمد عبد الله دراز" 12-"رسائل لها تاريخ" 13-"زاد المسلم في الدين والحياة " .14-"الإمام المجدد محمد عبد الله درازسيرة وفكر" .14-المجتمع الصالح وكيف يتكون . 15- المنشآت النثرية .16- له العديد من المقالات ..

وفاته

في يوم 6 يناير1957م اهتزت الأوساط العلمية والثقافية لنبأ وفاة الأستاذ الدكتورمحمد عبد الله درازفي مدينة لاهوربباكستان".- الإمام المجدد محمد عبد الله دراز260 ،راجع العارف بالله سيدي محمد عبد الله درازوجهوده في خدمة الإسلام د/ اليماني الفخراني مطبوع وقد ألفته في عام 2012م وقد عشت العام كله مع مؤلفات الدكتور درازرحمه الله تعالى فكانت كلها بركة ،وتعلمت منها الكثير مما كنت أجهله ،ولعل هذا الملخص من بركات التلمذة على مؤلفاته رحمه الله تعالى .

الأخلاق الفلسفية

"كلمات في مبادئ علم الأخلاق " هكذا وبهذا التواضع الشديد،اختار الإمام محمد عبد الله دراز عنوان بحثه الصغير الحجم الكبير القيمة،المعدود صفحاته الغزير بمعلوماته،الذي درسّه لطلاب كلية أصول الدين بالقاهرة عقب عودته من فرنسا ، وبمقدار الفخر بهذه الرسالة "كلمات في مبادئ علم الأخلاق" يكون الأسف والحزن على المستوى العلمي الذي هبطنا إليه،فالدكتور دراز قد كتب في المبادئ

حتى نبني عليها فما الذي بنيناه؟ لقد وضع الأساس فأين المبنى؟لقد وضع المقدمات فأين النتائج؟ لقد وضع المقدمة فأين الخاتمة؟ مازلنا على تمهيده عالة،وعلى مبادئه نتعلم ونعلِّم وليتنا فعلا نتعلم .

هذه الرسالة العظيمة القدر والمعرفة قد طبعت في عهد المؤلف –رحمه الله- في عام1372هـ - 1953م ،وقد اشتمل هذا البحث أعني:"كلمات في مبادئ علم الأخلاق" على خمسة عناوين :خصصت لكل عنوان مبحثاً

1- الأخلاق وتقسيمها إلى غريزية ومكتسبة.
2- علم الأخلاق،وتقسيمه إلى نظري وعملي.
3- الاعتراضات على علم الأخلاق النظري.

تقرير الاعتراض الأول؛وهو التناقض في فكرة الفلسفة العملية.تقرير الاعتراض الثاني؛وهو أن بحوث الأخلاق النظرية جهود ضائعة. ثم تعرضت للاعتراض الثالث، ثم عرجت على شرح الاعتراض الرابع

4- الأخلاق الفلسفية،والأخلاق الدينية.من حيث الموضوع.من حيث واضع القانون ومستنده.من حيث بواعث العمل وأهدافه وأجزيته.
5- علاقة علم الأخلاق بالتربية .

وإليك كلمة موجزة عن كل عنوان من هذه العناوين،والتي وضعت ضمن مباحث خاصة بها:ثم بعد ذلك نذكر نص الدكتور دراز حتى يتعود الطلاب على أسلوب أعظم فيلسوف مسلم معاصر في الفلسفة الأخلاقية ، رحمه الله تعالى برحمته الواسعة .

الأخلاق وتقسيمها إلى غريزية ومكتسبة

استهل الدكتور دراز كلامه بنقل تعريفات عدة للأخلاق،فنقل عن صاحب القاموس،و ابن الأثير ،و ابن مسكويه،والغزالي،ثم خلص إلى أن الخلق:"هيئة أو صفة للنفس" ولكن الدكتور دراز يذهب إلى أن الخُلق ليس صفة للنفس في جملتها،ولكن في جانب معين من جوانبها،وليس هذا الجانب هو جانب العقل والمعرفة،ولا جانب الشعور والعاطفة،و إنما هو جانب القصد والإرادة.

كما أضاف إلى هذا التقييد تقييد آخر،فقال:إن الخُلق يتعلق بنوع خاص من الأهداف الإرادية،وهو تلك الأهداف التي ينشأ عن اختيارها وصف يعود على النفس بأنها خيرةً أو شريرةٌ.

من هاتين الخاصيتين استطاع الدكتور دراز أن ينظم التعريف التالي:"الخُلق هو قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح(إن كان الخلق حميداً)أو إلى اختيار ما هو شر وجور (إن كان الخلق ذميماً).

الفرق بين الخلق والسلوك

ثم تحدث عن الفرق بين الخلق والسلوك،ونبه إلى أهمية ألا يشتبه علينا الفرق بين الخلق والسلوك.فالخُلق أمر معنوي،وهو صفة النفس وسجيتها.أما السلوك فهو أسلوب الأعمال ونهجها وإعادتها،وما هو إلا مُظهر الخُلق ومرآته ودليله،وهذه خلاصة دقيقة للفرق بين الخلق والسلوك يكتب غيره صفحات من أجل توضيحها.

كيف تكون الأفعال علامة صحيحة على خلق صاحبها ؟

لكي تكون الأفعال علامة صحيحة على خلق صاحبها لا بد أن يجتمع فيها عنصران :

أحدهما : أن تتكرر الأفعال على نسق معين حتى تكون عادة مستقرة ،وحتى تدل على قوة راسخة ونزعة ثابتة إلى هذه الأفعال .

الثاني:أن تقوم الأمارات على أن هذه الأفعال صادرة بطريقة انبعاثية عن النفس ،وليست أثراً لأسباب خارجية،من الخوف أو الرجاء ،أو الحياء أو الرياء،أو نحوهما.

الأخلاق بين الفطرة والاكتساب

سيقول قائل: إذا كان الإنسان كما ذكر هو مزاج روحه،وهيئة نفسه الراسخة فيها،على غرار الصورة الخلقية لبدنه،ألا يكون ذلك اعترافاً من أول الأمر بأن الأخلاق فطرية دائماً،لا سبيل إلى تغيير ما وجد منها،ولا إلى اكتساب ما ليس بحاصل فيها؟وهذا الاعتراف ينطبق بلا ريب على بعض وجوه النظر في المسألة،ولكنه لا يساير جملة المذاهب فيها،فإذا سلمتموه أصبح علم الأخلاق وليس له موضوع متفق عليه،مسلم الثبوت في نفسه.

نقول:كلا،إن التعريفات للخلق لا تنطوي على الاعتراف بشيء من هذه اللوازم ،ذلك أننا نسمي خلقاً كل قوة إرادية راسخة،نزاعة إلى الخير أو إلى الشر،سواءً أكان هذا الرسوخ في كل أحواله من عمل الفطرة

والجبلة ليس غير،كما يقول أهل الجبر،أم كان يحصل تارة بالجبلة والغريزة،وتارة بالكسب والرياضة،كما يقول غيرهم.

فها هنا إذاً مذهبان،يجمل بنا تعرفهما،وبسط وجهة نظرهما.

ثم عرض بشيء من التفصيل لأصحاب كل مذهب وحججهم ،فتحدث عمن سماهم بغلاة أهل الجبر،وذكر منهم "شوبنهاور" و"كانت" و"سبينوزا"و "ليفي بريل" و"هيوم" وذكر من كلامهم ما يدل على أن الأخلاق فطرية لا يمكن تغييرها،ثم عقب بذكر الأبعاد الفلسفية المؤثرة في أحكامهم فقال:

أولئك فريق من فلاسفة أوربا،غلب على عصرهم البحث في القوى المادية وطبائعها،ورأوا ما فيها من قوانين علمية ثابتة،فأرادوا أن يبسطوا نتائجها على سائر العلوم...حتى الاجتماعية ،والأخلاقية.فهم لذلك يصورون لنا الإرادة الإنسانية سجينة في نطاق حديدي من الغرائزوالطبائع ، ويصورون لنا البشرية كلها عاجزة عن التحول والتطور.

ففيم إذاً كان إنزال الكتب وإرسال الرسل؟وفيم إذاً وضعت الشرائع والقوانين؟ وفيم كان ويكون عمل المؤمنين والمربين؟ألا يكون ذلك كله عناءً بغير جدوى؟ أو لا تكون دراسة الأخلاق نفسها ملهاة أو شبه ملهاة؟.

ثم عقب بنقض هذا الاتجاه من وجهة نظر أنصار الحرية والتقدم فإنهم لا يرون في هذه المقالات جميعها إلا ضروباً من الدعوى المجردة،أو السفسطة المموهة،أو الخلط بين موضوع الأخلاق وغيره .ثم شرع في الرد التفصيلي على القائلين بأن الأخلاق فطرية لا يمكن تغييرها.فذكرست حجج عقلية منطقية دامغة على بطلان هذا الاتجاه الذي يدعو إلى الكسل والبطالة، بالإضافة إلى الأدلة النقلية اليقينية التي ذكرها.

علم الأخلاق وتقسيمه إلى نظري وعملي

وقد خلص الدكتور دراز إلى أن الأخلاق يقصد بها :جملة القواعد التي ترسم لنا طريق السلوك الحميد،وتحدد لنا بواعثه وأهدافه.

فكلمة"علم الأخلاق"لفظ مشترك بين نوعين من البحث(أحدهما)بحث عن أنواع الملكات الفاضلة التي يجب علينا التحلي بها،كالإخلاص والصدق، والعفة، والشجاعة،والعدل والوفاء ،وأمثالها. ويسمى"علم الأخلاق العملي"وهذا النوع في الحقيقة هو أمس الضربين بالحياة، وأحقهما بأن يكون نبراساً في كل يد،فهو الغذاء اليومي،بل هو الواجب العيني.

ولذلك لا تكاد تخلو أمة في القديم والحديث من معرفته والحث على آدابه التي تصل إليها بالفطرة،أو بالفكر،أو بالتجربة،أو بالوراثة والرواية .

و(الثاني)بحث عن المبادئ الكلية والمعاني الجامعة التي تشتق منها تلك الواجبات الفرعية ،كالبحث عن حقيقة الخير المطلق،وفكرة الفضيلة من حيث هي، وعن مصدر الإيجاب ومنبعه ،وعن مقاصد العمل البعيدة،وأهدافه العليا،ونحو ذلك. ويسمى"فلسفة الأخلاق"أو "علم الأخلاق النظري".ولا يطلب من غيرهم إلا كما تطلب النافلة بعد تمام الفريضة.ولذلك لا نجد له من الأقدمية ولا من الشمول ما لعلم الأخلاق العملي.

ثم ينبهنا الدكتور دراز إلى نقطة في غاية الأهمية،وهي معنى كون فلسفة الأخلاق فلسفة عملية أنها تتعلق بالعمل،لا أنها هي من نوع العمل،فإن الفلسفة كلها بحوث نظرية وإن اختلفت مادتها وموضوعها.فإذا تعلقت بالحق الذي يعتقد،كانت نظرية في أداتها،وفي موضوعهما معاً،وإذا تعلقت بالخير الذي يفعل،كانت نظرية في أداتها،عملية في موضوعها ؛بل علم الأخلاق العملي نفسه هو أيضاً من قبيل النظر لا العمل،وإن كان العمل مادته كما هو مادة العلم النظري،مع الفارق الوحيد بينهما وهو:أن العمل الذي هو موضوع العلم العملي أنواع من الأفعال لها مثال في الخارج،كالصدق والعدل ونحوهما،بينما موضوع العلم النظري هو جنس العمل المطلق،وفكرته المجردة،التي لا يتحقق مسماها خارجاً إلا في ضمن الأنواع التي بحث عنها العلم العملي.

أهم الاعتراضات على علم الأخلاق النظري

ذهب (ليفي بريل)في كتابه الذي وضعه في أول هذا القرن(العشرين)تحت عنوان"الأخلاق وعلم الآداب العرفية"إلى أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد علم نظري للأخلاق،و أيد دعواه بأربعة أوجه،نوجزها فيما يلي:

1-إن فكرة "فلسفة عملية"هي ذاتها فكرة متناقضة.2- أنها على فرض إمكانها فإنها عبث ليس له جدوى. 3،4-أنها مبنية على فرضين غير مسلمين(أحدهما)أن الفطرة الإنسانية واحدة في الناس جميعاً لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة،(الثاني)أن الوجدان الخلقي وحدة لا تتنازعها العوامل المتباينة،وأن الواجبات الأخلاقية مجموعة متماسكة لا تنافر فيها ولا تعارض.

وبعد أن استفاض في تقرير الاعتراض الأول خلص إلى أن فلسفة الأخلاق فلسفة وصفية تصويرية،كاشفة لأصول القيم الأخلاقية،ولكنها بتقرير هذه الأصول وإرسائها تبعث في النفس إيماناً بعدالة تلك القيم،و اقتناعاً بأنها تستند إلى حقائق ثابتة،وتنتسب إلى مقدسات سامية.ومن شأن هذا الإيمان بدوره أن يوحي إلى النفس أمراً علوياً بوجوب تحقيق تلك القيم الكبرى.

فها هنا إذاً حكمان منفصلان لا اختلاط بينهما،ولا التباس في أمرهما،وإن أولهما يستتبع ثانيهما حقاً،لكنه لا يستتبعه استتباع المقدمات القياسية لنتائجها المنطوية فيها،حتى يقال إن الخبر لا ينتج إنشاء،بل استتباع الأسباب لمسبباتها، والوسائل لمقاصدها،فإن معرفة مبررات القانون،والاقتناع بعدالته يجذب النفوس إلى امتثاله،ويغريها بطاعته عن محبة وطواعية.

وبعد أن فرغ من تقرير الاعتراض الثاني،وهو أن بحوث الأخلاق النظرية جهود ضائعة

فأقل ما يرد به على هذا الاعتراض أن المجتمع طبقتان:طبقة العامة والجماهير،ذوي الحياة الكادحة،الذين ليس لهم من الفراغ ما يتلفتون فيه نحو هذا النور،وطبقة الخاصة المثقفين،الذين لا يكتفون بمعرفة الطرق العملية،حتى يضموا إليها براهينها النظرية،ومبادئها الكلية،ولكل طائفة من هؤلاء المثقفين مشرب في الاستدلال،وغرض يسعى إليه في الحياة،فهؤلاء بعينهم أشد العناية أن يستعرضوا هذه النظريات،ليختاركل منها أقربها لاقتناعه،أو يتزودوا من جملتها ويتسلحوا بمختلف أسلحتها،للانتصار على مذاهب الهدم ونزعات التشكيك في حقيقة القانون الأخلاقي.

بسط الاعتراض الثالث:

إن جميع النظريات الأخلاقية تدعي وجود قانون عام للإنسانية كلها،ووجود قانون عام كهذا يفترض وجود طبيعة إنسانية متشابهة،لا تختلف باختلاف الأمم والمدنيات،ولا باختلاف الأقطار والعصور،لكن الو اقع أن هذه الفطرة الواحدة لا وجود لها،ذلك أن الناس صنفان :بدائيون ومتحضرون.

فأما البدائيون فلا محل في عقولهم لفكرة القانون الأخلاقي ،لأنهم لا يعرفون سوى الفوضى المطلقة التي لا رادع فيها من ضميرولا قانون.

وهنا يجيب الدكتور دراز قائلاً:إن ما نسبوه إلى الجماعات البدائية من خلوها من كل قاعدة للسلوك هو على طرف النقيض من الو اقع الذي تضافرت عليه كل الدلائل،وهو أن هذه الجماعات تبالغ في تشددها وتضييقها في أسلوب الحياة والمعاملات إلى حد التزمت أو الخر افة .

وأما المتحضرون: فإنهم وإن عرفوا فكرة القانون،إلا أنهم يعرفونها في صور متناقضة: فالأخلاق في الشرق غير الأخلاق في الغرب،والأخلاق عند الأمم القديمة غيرها عند الأمم الحديثة: الخير هنا شر هناك،والعدل هناك ظلم هاهنا.

هذه الحجة قديمة،كان يروجها سوفسطائية اليونان،ثم تجددت في عصر النهضة الأوربية بقلم بعض مشاهير كتابها،أمثال(مونتيني)و(باسكال)ثم انتحلتها هذه المدرسة الاجتماعية، وتوسعت في سرد شواهدها نقلا عن الرحالة والسائحين القدامى والمحدثين.

ويجيب الدكتور دراز فكان من جوابه:نعم لو وجدنا في أمة قانوناً يبيح لها القتل والسرقة مثلاً فأصبحا أمرين مستباحين عندها بلا استهجان ولا نكير من ضميرها،إذا لساغ لنا أن نقول بفقد قانون الأخلاق عندها،وما يذكر عن قدماء الرومان من أن رب الأسرة كان له حق الموت والحياة على زوجه وأولاده ،يقتل من يشاء ويستحي من يشاء،لا نستطيع أن نفهمه على معنى أن قلوب الآباء في هذه الأمة كانت مجردة من الرأفة على أهليهم،ولكن على معنى أن القانون خول لرب الأسرة فيها سلطة القاضي في العقاب والتأديب لمن يستحق.

وكذلك ما يقال عن قانون إسبارطة،من أنه كان يبيح الاختلاس والنهب في بعض المواسم ،نفهمه على أن ذلك كان نوعاً من اللهو أو التدريب على أساليبهم في الغزوات والحروب ،عن تراض منهم...

شرح الاعتراض الرابع :

قالوا إن وجود قانون عام للأخلاق لا يفترض وجود طبيعة إنسانية عامة متشابهة في الجماعات والمدنيات فحسب،بل إنه يستلزم قبل كل شيء أن يكون هذا القانون نفسه مؤلفاً من واجبات متساندة متعانقة لا تناقض بينها،وأن يكون الوجدان الأخلاقي الذي ينبع منه هذا القانون مؤلفاً هو أيضاً من عناصر مؤتلفة غير متضاربة ...لكن كلا اللازمين باطل،فالقانون الأخلاقي مجموعة متنافرة من الواجبات الفردية والأسرية والمهنية والوطنية والإنسانية،والحياة نفسها مجموعة متعارضة من المطالب البدنية والعقلية والسياسسة والدينيةنبل الوجدان الخلقي عند كل واحد منا هو مجموعة أحكام متناقضة:بعضها من محاكاة البيئة،وبعضها موروث من عصور متفاوتة:دينية أو قومية أو أجنبية.

هذا هو الاعتراض الرابع والأخير.

ونحن لا نشغل أنفسنا بمنع ما يحويه من مقدمات،ولكننا نسلم جدلاً وجود تلك المفارقات في أحكامنا،وتلك المعارضات في واجباتنا.ونجيب بأن الفيلسوف،في استنباطه للقانون الأخلاقي العام،لا يستفتي هذه الوجدانات الفردية المعقدة المتناقضة،بل إنه يسمو عن الجزئيات إلى المجردات،ويرجع إلى طبيعة الإنسان من حيث هي،ليعرف مقتضياتها وحقوقها العامة.

ومتى استنبط لها هذا القانون الكلي أصبح هذا القانون بحيث يفرض نفسه فرضاً على الوجدانات الفردية،وكان عليها أن تسمو هي إليه،لا أن ينزل هو إليها...وإذا كانت الواجبات قد تتزاحم وتتنافس،فالأصل أن يبذل كل امرئ جهده في طلب التوفيق بينهما،لإعطاء كل ذي حق حقه، فإن بلغ التزاحم فيها مبلغ التعارض،كان من تمام مهمة المشرع أن يضع لكل واجب رتبته تقديماً أو تأخيراً،زيادة أو نقصاً،ليبدأ العامل بالأهم قبل المهم،وبالمهم قبل غير المهم،فيجعل الضروري قبل الحاجي،والحاجي قبل الكمالي،ويضحى بالأدنى في سبيل المحافظة على الأعلى،وهكذا يستقيم الأمر جملة وتفصيلاً،تشريعاً وتنفيذاً.

الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية .

اشتهر عند الباحثين من علماء الغرب أن قوانين الأخلاق الفلسفية تختلف اختلافاً بيناً عن قوانين الأخلاق الدينية،وأن هذا الاختلاف بينهما يبدو من وجوه شتى:من حيث موضوعهما(أي نوع العلاقات التي ينظمها كل منهما)ومن حيث الواضع لهما(أي السلطة التي يصدر عنها الأمر الأخلاقي)ومن حيث أساس التشريع(أي الأسباب التي يستند إليها)ومن حيث بواعث العمل وأهدافه وجزاءاته المقررة في كل منهما، وإليك تفصيل هذه الخصائص التي ميزوا بها الطابع الأخلاقي في الأديان،عن الطابع الأخلاقي عند الفلاسفة:

1- من حيث الموضوع:

فالأخلاق الدينية في نظرهم مهمتها تنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق،ولا شأن لها بأمور المعاملات الإنسانية،بينما الأخلاق الفلسفية ترسم الطريق لسلوك الإنسان في نفسه أو في المجتمع،ولا شأن لها بنظام الشعائر والعبادات.

2- من حيث واضع القانون ومستنده.

مهما تتنوع المذاهب الفلسفية في مصدر الإلزام الأدبي:أهو العقل،أم الوجدان الخلقي،أم ضرورة الحياة في المجتمع،أم غير ذلك،فإنها كلها تلتقي عند كلمة واحدة،وهي أنه مصدر إنساني،وأن مستنده في التشريع اعتبارات إنسانية تبرر حكمه لدى العقل أو العاطفة.

أما الإلزام في الدين فيقولون إن مصدره إلهي صرف،وإن مستنده هو محض تلك الإرادة العليا وقضاؤها المبرم،الذي لا يعنيه رضيت النفس أم كرهت،اقتنع العقل أم أبى.

3- من حيث بواعث العمل وأهدافه وأجزيته:

قالوا:وتنفصل النظرة الدينية عن النظرة الفلسفية من هذه النواحي أيضاً،ذلك أن الشرائع الدينية تضع لمن يمتثل أمرها أويعصيها جزاءً أخروياً:مثوبة أوعقوبة،وتتخذ الترغيب في الفضيلة وللتحذير من الرذيلة وسائل ،تستمدها من معدن تلك الأجزية،جاعلة الهدف الوحيد للعامل هو نيل الثواب والنجاة من العقاب،وباعثه الوحيد على العمل هو الخوف أو الرجاء،وهكذا تصبح الاستقامة الخلقية عملاً حسابياً لموازنة الربح والخسارة،وليست عملاً بريئاً من الأغراض،مجردا عن الغايات النفعية .

بينما قانون الأخلاق الفلسفية لا يفترض جنة ولا ناراً ولا حياةً بعد الموت،بل لا يلوح بجزاء للفضيلة سوى نتيجتها الطبيعية،من رضي العامل وطمأنينته،وشعوره باستكمال إنسانيته، وارتياح ضميره بأداء الواجب.

ثم شرع الدكتور دراز في النظر في قيمة هذه الفوارق،ومدى انطباقها على وجهة النظر الإسلامية في الأخلاق:

1- أما إن موضوع الأخلاق في الديانات ينحصر في مادة العبادة والشؤون الإلهية،فهذه الخاصة إن صحت في دين ما فما أبعدها عن أن تكون طابعاً لقانون الأخلاق في الإسلام،لا نكتفي بأن نقول إن هذا القانون لم يدع للنشاط الإنساني،في ناحيته الفردية والاجتماعية،مجالاً حيوياً أو فكرياً أو أدبياً أو روحياً،إلا رسم له منهجاً للسلوك وفق قاعدة معينة،بل نقول إنه تخطى علاقة الإنسان بنفسه،وعلاقته ببني جنسه،فشمل علاقته بالكون في جملته وتفصيله،ووضع لذلك كله ما شاء الله من الآداب المرضية والتعاليم السياسية،وهكذا جمع ما فرقه الناس باسم الدين وباسم الفلسفة،ثم كان له عليهما المزيد .

2- وكذلك يرى الناظر في أسلوب الدعوة الأخلاقية في الإسلام،أنها منزهة عن ذلك الطابع التعبدي التحكمي الذي زعموه في الأخلاق الدينية،وأنها على العكس من ذلك تعتمد دائماً على الحكم المعقولة المقبولة، مخاطباً الإدراك السليم،والوجدان النبيل، بالأسباب المقنعة التي تبرر أمرها بما تأمر به ،ونهيا عما تنهي عنه،تفصيلاً في ذلك تارة،وإجمالاً فيه تارة أخرى.

يفخر الحكماء بأنهم اكتشفوا للإلزام الأدبي مصدراً آخر،غير الوحي السماوي ،ذلك هو النور العقلي،أو الإحساس الأخلاقي،الذي ينطوي عليه كل قلب إنساني ألا فليعلموا أنهم لم يأتوا بجديد غريب عن الإسلام.

فالقانون الإسلامي في رجوعه إلى العقل السليم والوجدان النبيل،يرجع إليهما لا باعتبار أنهما شهيدان له فحسب،يؤيدان حكمه ويشفعان له عند المخاطبين .كما بينا آنفاً ،بل إنه يقلدهما مقاليد الحكم،ويخولهما حق الأمر والنهي،في أطوار ثلاثة: قبل ورود الشرع،وفي أثناء نزول الشرع، وبعد انتهائه وتمامه أما قبل الشرع فإن القرآن يقرر في أصرح عبارة أن النفوس كلها قد منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخيروالشر، والعدل والظلم،والتقوى والفجور:{ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها} الشمس:7-8.{بل الإنسان على نفسه بصيرة*ولو ألقى معاذيره} القيامة:14-15.

ثم لا يكتفي بأن يجعل هذه البصيرة قوة كاشفة معرفة،بل يجعلها آمرة ناهية،وينعي على من يخالفها بأنه من أهل الضلال والطغيان:{أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون} الطور:32. هذه القضية المنفصلة لا تدع مجالاً للشك في وجوب الخضوع لأوامر الأحلام والعقول متى اتضح أمامها طريق الحق والخير،وكذلك يقول صاحب الرسالة الباهرة صلوات الله وسلامه عليه:"إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه".

...و إنما الذي يعنينا في هذا المقام هو اتفاق الطرفين على أن الإسلام يقرر للعقل سلطاناً أدبياً بالمعنى الإنساني الذي شرحناه آنفاً.وهو المعنى الذي زعم علماء أوربا أنهم اكتشفوه في المذاهب الفلسفية خاصة.هذا السلطان الأدبي الذي يسميه الفلسفة "سلطان الضمير"يعترف الإسلام به على استقلاله وكماله في الفترة التي تسبق قيام الشريعة ووصولها إلى من وجهت إليه،كما بينا.

3- وما الحديث عن الأجزية والبواعث والأهداف،ودعوى اختلاف طبائعها في نظر الدين عن نظائرها في نظر الفلسفة،فإنه إن سلم في بعض الأديان الأخرى فهو أبعد ما يكون عن وجهة النظر الإسلامية،وهو في جملته أكثر انطباقاً على المسيحية منه على اليهودية(إن صحت نسبة كتبهما المعروفة إليهما).فقد كان الترغيب والترهيب في التوراة بوعود و إيعادات كلها عاجلة في هذه الدنيا،وتكاد تستأثر بها النزعة المادية الخالصة:الصحة ،والرخاء،وكثرة الأولاد،وهزيمة الأعداء، للمطيعين وأضدادها لأضدادهم.

ثم جاء الإنجيل على العكس من ذلك يحول أنظار معتنقيه من ملك الأرض إلى ملكوت السماء، ويبشر الخيرين بما أعد لهم في الآخرة،من جزاء القرض الحسن بأحسن منه .

أما القرآن فقد نظم هذين الطرفين المتباعدين في سلك واحد:{لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر}.ثم لم يكتف بذلك ،بل قام إلى جانب مهمة الجمع والتوفيق،بمهمة البناء والإنشاء والتكميل،فوصف ما للفضيلة من الأجزية والآثار المعنوية الصالحة، روحية ، وخلقية،وعقلية،وحسية عاجلة وآجلة،بحيث تتذوق فيه كل نفس طعم الأمنية التي تشتاقها، وتسمع كل أذن نغمة الأنشودة المحببة إليها.إقرأ في الروحيات:{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ(10) }فاطر:10.{ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) }آلعمران:31.

وفي الأخلاقيات:{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69) }العنكبوت:69.{ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) }محمد:17.

وفي العقليات:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)}الأنفال:29.{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28) }الحديد:28.ومن أجل هذه الأجزية القرآنية نعمة الرضا والارتياح لأداء الواجب،وهي تلك المتعة التي تزعم الفلسفة الاستئثار بها:{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) } الغاشية:8، 9.وفي الحديث الشريف:"من ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن" مسند أحمد 18/1..

علاقة علم الأخلاق بالتربية

اعتمد الدكتور دراز هنا على المعنى اللغوي لمصطلح التربية،وعمل على إيجاد الصلة بين التربية وسائر العلوم،و انتهى إلى أن التربية إن توجهت باستمرار لأعمال الإنسان على سنن الاستقامة،حتى تتكون منها العادات الصالحة والأخلاق الحميدة الراسخة،كانت هي التربية الخلقية.

فقال:إن"التربية"تفعلة،من ربا يربو،إذا زاد ونما.فهي تعهد الشيء ورعايته بالزيادة والتنمية والتقوية،والأخذ به في طريق النضج والكمال الذي تؤهله له طبيعته.

والتربية الإنسانية الكاملة هي التي تتناول قوى الإنسان وملكاته جميعها:

(1)تنمية لجسمه،وحفظاً لصحته،وهذه هي التربية البدنية(2)وتقويماً للسانه وإصلاحاً لبيانه، وهي التربية الأدبية(3)وتثقيفاً لعقله وتسديداً لتفكيره وأحكامه،وهي التربية العقلية(4) وتزويداً به

بالمعلومات الصحيحة النافعة،وهي التربية العلمية(5) وترويضاً له على وسائل الكسب لعيشه،وهي التربية المهنية(6)و إيقاظاً لشعوره بجمال الكون،ومعاونةً له على التعبير عن هذا الشعور،وهي التربية الفنية(7)وتعريفاً له بحقوق المجتمع الذي يعيش فيه،وبما فيه من نظم وقو انين،وهي التربية الاجتماعية والوطنية(8)وتوسيعاً لأفق شعوره بالأخوة العالمية،وهي التربية الإنسانية(9)وتوجيها مستمراً لأعماله على سنن الاستقامة،حتى تتكون منها العادات الصالحة والأخلاق الحميدة الراسخة،وهي التربية الخلقية(10)ثم تسامياً بروحه إلى الأفق الأعلى بإطلاق ،وهي التربية الدينية.

ولقد يذهب الظن بالناظر في هذا البسط والتقسيم إلى أن"علم الأخلاق"إنما يعني شعبة واحدة من بين هذه الشعب،وهي شعبة"التربية الأخلاقية". وليس الأمر كما يوحي به هذا الظن،فإن سلطان الأخلاق منبسط على وجوه النشاط الإنساني كلها،لا يشذ عنه عمل تربوي ولا غير تربوي،ولا يتفاوت في حكمه نشاط بدني أو عقلي أو فني أو أدبي أو روحي.

فالفنان الذي يجافي بفنه قانون الحشمة واللياقة ،ويهتك به ستر الحياء والعفاف يتصدى لمقت الضمير الحي،وإن لم تؤاخذه قواعد الفن،والمعلم الذي يختار مادة تدريبه العقلي واللغوي للناشئين من أحاديث الرفث،و أقاويل التحريض على الهجر والإثم،يسيء من حيث يحس أنه يحسن، والمرشد الديني أو البشر الذي يتوسل في الدعوة إلى دينه بوسائل الخداع والكذب،أو بشيء من الإغواء بالمال أو الجاه أو غيرهما،يرتكب جريمة من أشنع الجر ائم.

وهكذا سائر أنواع التربية وشعبها،فإنها وإن اتخذت لها أهدافاً أخرى اشتقت لنفسها منها أسماءً معينة،إلا أنها يجب أن تخضع في وسائلها وأساليبها وبواعثها لقواعد الآداب،وأن تقيس ذلك كله بمقاييس الفضيلة.و إنما تمتاز "التربية الأخلاقية"من بين سائر الشعب بأن هدفها القريب، وغايتها المباشرة،هي التدريب على السلوك الرشيد، وتكوين الخلق الحميد،فصلة علم الأخلاق بها أقوى و أقرب،فلننظر في كنه هذه الصلة.

المحاضرات: الر ابعة والخامسة والسادسة

من الأخلاق العملية : الأمانة التوكل الرحمة

الأمانة في اللغة:يذكر ابن فارس أن مادة (الأمانة) لها أصلان متقاربان: أولهما : الأمانة التي ضد الخيانة،ومعناه سكون القلب،والآخر: التصديق

والمعنيان متدانيان،وأصل الأمن هو طمأنينة النفس وزوال الخوف،ونلاحظ أن هناك ثلاثة ألفاظ من مادة (أ م ن) وبينهما علاقة أو رابطة،وهذه الكلمات هي:(الأمن،والأمانة،والإيمان) والمعنى المشترك بينهما هو الاطمئنان؛ لأن الأمانة تدل على الثقة،والثقة اطمئنان،والأمن عدم الخوف،وعدم الخوف اطمئنان،والإيمان تصديق وإذعان،وفيها استقرار واطمئنان

الأمانة بالمعنى الأخلاقي

والأمانة بمعناها الأخلاقي شعور بالتبعة،واحتكام إلى الضمير اليقظ والنهوض والرعاية لكل ما في عهدة الإنسان من شيء حسي أو معنوي،وكأن الحديث النبوي يرمز إلى هذا المعنى حين يقول:" كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته". *صحيح البخاري ج: 1 ص: 304.*

الأمانة في القرآن الكريم:ولقد تحدث القرآن الكريم عن فضيلة (الأمانة) في أكثر من موطن منوها بشأنها حاثاً على صيانتها ومن الآيات المجيدة التي جاء ذكر الأمانة قول الله تعالى في سورة الأحزاب:{ إنّا عَرَضْنا الْأَمانَةَ عَلى السماوات والْأَرْضِ والْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَها الإنسان إِنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولاً}.*الأحزاب:. 72*

ولقد ذكر الأصفهاني في كتابه المفردات أن معنى الأمانة هنا فيه أقوال،هي:التوحيد أو العدالة أو حروف التهجي،أو العقل ، ثم مال إلى اختيار معنى العقل،لأنه في رأيه يشمل الأقوال السابقة ، فقال عنه وهو صحيح ، فإن العقل هو بحصوله تتحصل معرفة التوحيد،وتجري العدالة،وتعلم حروف التهجي بل لحصوله تعلم كل ما في طوق البشر تعلمه،وفعل ما في طوقهم من الجميل فعله وبه فضل الله الإنسان على كثير من خلقه،وبه ندخل الجنة ،وبتعطيله يدخل النار أهلها،فلو كانوا يسمعون أو يعقلون لما كانوا من أصحاب السعير. ولكن الأقرب والمشهور في معنى الأمانة هو أنه يراد بها:التكاليف والحقوق المرعية التي أودعها الله المكلفين،و ائتمنهم عليها،وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها وأدائها والمحافظة عليها،من غير إخلال بشيء من حقوقها.

ولقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة بالمراد،فقيل:أن الأمانة هي المحافظة على الصلوات،وأداة الزكاة، والصوم،وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

وقيل:إنها أمانات الناس،أي ودائعهم التي يودعونها عند غيرهم .وقيل:إنها الأمانة في الحديث وعدم الزيادة عليه. وقيل:إنها صيانة المرأة لعرضها . وقيل: إنها الاغتسال من الجنابة. وقيل: أنها صيانة الإنسان لدم غيره وعدم الاعتداء عليه.

وهذه الأقوال كلها وأمثالها لا تخرج عن كونها ضرب أمثلة و أنواع لصور من الأمانة الكثيرة الصور والأنواع ، والذي يطمئن إليه القلب هو أن المراد بالأمانة: الطاعة ، والتكاليف ، والفرائض التي افترضها الله على عباده ، وهي كل أمور الدين بما فيه من واجبات وحدود،ولذلك استحسن الإمام الطبري أن المراد بالأمانة في هذا الموضع: هو جميع الأمانات في الدين،وكذلك جميع الأمانات التي تكون بين الناس ؛ لأن الآية الكريمة لم تخصص نوعاً من أنواع الأمانة،فكان التعميم أولى وأحسن،ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة النساء:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدّوا الْأَمَاناتِ إلى أَهْلِها}.النساء : 58.ولا تؤدى الأمانات إلى أهلها على وجهها إلا من المتصفين بفضيلة الأمانة حتى يرعوا حقوق الناس حق رعايتها .

هكذا نرى أن الأمانة شاملة لكافة الحقوق التي وكل الله إلينا أمرها،وكلفنا بحفظها ومراعاتها،واجتناب كل ما لله فيه مخالفة وعصيان،ولذلك صورت في القرآن بصورة ضخمة،يعجز الكون كله عن حملها،وعظم أمرها تعظيماً بليغاً .

أمانة الرسول الأعظم: ﷺ

وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن الرسول ﷺ حينما فتح مكة دعا عثمان بن طلحة ، وكان بيده مفاتيح الكعبة،فلما جاء عثمان قال له النبي ﷺ :" أرني المفتاح"يعني مفتاح الكعبة ،فلما مد عثمان يده بالمفتاح ، قال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله ، بأبي أنت و أمي اجمعه لي مع السقاية ، فقبض عثمان يده بالمفتاح خوفاً أن ينتزع منه . .فقال النبي ﷺ :"هات المفتاح يا عثمان"،فأعطاه قائلاً: هاك أمانة الله.فقام النبي ﷺ وفتح الكعبة وطهرها،وطاف بالبيت ثم عاد فرد المفتاح إلى عثمان،وتلا قول ربه تبارك وتعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدّوا الْأَمَاناتِ إلى أَهْلِها}النساء:58. *تفسير ابن كثير ج: 1 ص: 517*

وهذا من آيات الأمانة في الإسلام وحتمية أدائها حتى لغير المسلمين،عكس ما كان عليه اليهود،فقد حاول اليهود الملعونون استباحة أموال غير اليهود فنزل القرآن يندد بهذا السلوك الشائن ،وذلك فيما روى أن سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية:{ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل} [آل عمران: 75] .

يعنون أن أموال العرب حلال لهم؛ لأنهم من غير أهل الكتاب. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زورا ولا ما يبديه من العفة غرورا فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس أقبح ولمعرة الرياء أفضح»

ويقول الله تعالى في سورة البقرة :{ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ} البقرة : 283 ، أي : إن وثق بعضكم ببعض فليحفظ الموثوق به أمانته،والمؤتمن عليه ها هنا عام يشمل الوديعة وغيرها، فعلى المؤتمن أن يؤدي الأمانة إلى من ائتمنه، وليتق الله ربه ولا يتخون من الأمانة شيئاً؛ لأنه لا حجة على ذلك الشيء ولا شهيد ، فإن الله رب العالمين هو خير الشاهدين ، فهو أولى بأن يتقى ويطاع

...ولقد كان سيدنا محمد ﷺ مثلاً أعلى في فضيلة الأمانة حتى لقبه الناس منذ فتوته بلقب الصادق الأمين ومن الأدلة على ذلك أنهم جعلوه حكماً بينهم عند النزاع على وضع الحجر الأسود،وقالوا عندما رأوه هذا هو الأمين لقد رضيناه حكماً بيننا ...

ومن هنا كان رسول الله يستعيذ من الخيانة وهي ضد الأمانة ويتحدث عنها كأنها سبع كاسر أو شر مستطير، فيقول لربه:" أعوذ بك من الخيانة ، فإنها بئس البطانة ". *سنن النسائي ج 8 ص 263 برقم 5469*

... أمانة المؤمنين

ووصف الله تبارك وتعالى المؤمنين ، فقال فيما وصفهم به:{ والَّذينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعونَ } المؤمنون : 8 .أي : إذا ائتمنوا لم يخونوا الأمانة،بل أدوها إلى أهلها مهما كانت،كما أنهم يحفظون أمانتهم في دينهم واعتقادهم وقولهم وعملهم وسلوكهم مع الناس .

الأمانة في السنة المطهرة

ولقد جاءت السنة النبوية المطهرة من بعد القرآن المجيد ، فعنيت بفضيلة الأمانة ورفعت من شأنها فقال الرسول ﷺ :" الأمانة غنى"*مسند الشهاب ج:1 ص:44*، أي : هي سبب الغنى لأن الإنسان إذا عرفه الناس بالأمانة أقبلوا على معاملته ، وأحبوه فيصير ذلك سبب غناه

وخاطب الرسول ﷺ كل مسلم فقال له :" أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة في طعمة *مسند أحمد ج : 2 ص : 177* ..

فانظر كيف جعل فضيلة الأمانة طليعة لتلك الفضائل الأربع ، وطلب النبي من كل مسلم بأن يرعى الأمانة ويستمسك بها مع الناس جميعاً ، فقال:" أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك" *سنن الترمذي ج : 3 ص : 564*. .

التحذير من ترك أو تضييع الأمانة

وتحذر السنة المطهرة المسلم تحذيراً بليغاً رادعاً أن يضيع الأمانة أو يتنكر لها، فيقول الحديث:" لا إيمان لمن لا أمانة له " *موارد الظمآن ج:1 ص 41* ، ولقد مر النبي ﷺ على رجل يبيع براً (قمحاً) فوضع النبي ﷺ يده داخل القمح فوجد بللا . فقال:" ما هذا يا صاحب الطعام ؟ "

فأجابه : أصابته السماء يا رسول الله .

فاستنكر النبي : تصرفه، وعابه عليه وقال له:" أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا ليس منا " *المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ج: 1 ص: 175*. وجاء الحديث القائل:"إذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظر الساعة ".قيل : كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ . قال:" إذا أُسند الأمر إلى غير أهله انتظر الساعة" *صحيح البخاري ج:1 ص:33* ،وفي هذا تحذير وتخويف من تضيع الأمانة ، وإشعار بأنها حين تضيع تختل الأمور ويفسد العالم .

ولقد صور الرسول ضياع الأمانة معولاً من معاول التقويض لهذه الحياة،وعلامة على قرب قيام الساعة فجعل ضياع الأمانة علامة من علامات القيامة،فذكر بين أشراطها أن يتخذ الناس الأمانة مغنما،أي يضيعونها في سبيل شهواتهم وأهوائهم،فيرى من كانت في يده أمانة خيانتها غنيمة قد حصل عليها.

ويقول حديث آخر:"لا تزال أمتي على الفطرة ما لم يتخذوا الأمانة مغنماً والزكاة مغرماً" *الاستيعاب ج: 4 ص: 1616 برقم 2880* وكيف يبقى على الفطرة من يتنكر لفضيلة الأمانة،والرسول قد جعل الخيانة إحدى صفات المنافق الأثيم ، فقال عنه:"إذا أؤتمن خان ". *وورد في جامع التحصيل ج: 1 ص: 306 برقم 938.*

أمانة الإنسان مع الناس

وأمانة الإنسان مع الناس تتحقق برد ودائعهم إليهم ، وحفظ حقوقهم وصيانة أعراضهم وحفظ أسرارهم والبعد عن غشهم والاعتداء عليهم ، وقد سمع عمر بن الخطاب، وهو يخطب الناس فكان مما قاله: "لا تعجبكم من الرجال طنطنته، ولكنه من أدى الأمانة، وكف عن أعراض الناس، فهو الرجل".

وعلى نفس المنوال لا يعجبكم من المشايخ طول اللحية، ولا قصر الثوب،ولا سمك السواك،حتى تروا أمانته.

أمانة الحكام

وأمانة الحكام مع المحكمين تتحقق بالعدل بينهم ، والحرص على مصالحهم والسهر من أجلهم،والعمل على تحقيق حياتهم في ظلال شريعة ربهم،والحفاظ على عقيدتهم والتحلي بأخلاق دينهم.

حكاية : بين الأمانة والخيانة

لقد حدث في أثناء غزوة الأحزاب أن غدر يهود بني قريظة بالرسول ﷺ والمسلمين ونقضوا العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ و انضموا إلى المشركين في وقت شديد عصيب وشاءت عناية الله قهر حملة الأحزاب ، وتوجه الرسول ﷺ بعدها إلى تأديب الغدرة الفجرة من بني قريظة،وتمكن منهم بعد حصار طال وامتد ، وطلب هؤلاء من الرسول ﷺ أن يبعث لهم بالصحابي أبي لبابة ، وكان حليفاً لهم في الجاهلية ، وكان له بينهم مال وعقار، فحسبوا أنه سيكون سبب تخفيف عنهم ، ولما وصلهم أبو لبابة أخذوا يسألونه : أيسلمون وينزلون على حكم النبي ﷺ ؟

فقال لهم : نعم

ثم بدرت منه بادرة غير مقصودة ، فأشار بيده إلى حلقه إشارة يفهم منها أن مصيرهم هو القتل،ولعله كان قد عرف ذلك من الرسول ﷺ أو استنتجه،وهو قصاص عادل من غير شك . وما كاد أبو لبابه رضي الله عنه يأتي بهذه الإشارة حتى تنبه إلى نفسه في خوف وجزع ، وأحس وكأنه خان أمانة الله ورسوله ، في هذه الإشارة ؛ لأنه كشف شيئاً كان يجب عليه – ولو في اعتقاده – أن يخفيه فعصره الألم والحزن وقال : (فو الله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله). .وظهر الندم على وجهه ، فقال له بعض اليهود : مالك يا أبا لبابة ؟ فأجاب : لقد خنت الله ورسوله ،وعاد مسرعاً إلى المدينة ، والدمع يسيل من عينيه ، وما زال مسرعاً في مشيته حتى دخل المسجد،وربط نفسه في أحد أعمدته في سلسلة ثقيلة . وقال:والله لا أذوق طعاماً أو شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي مما صنعت . وأخذ على نفسه العهد الوثيق ألا يدخل أرض بني قريظة ما دام حياً ، مع أنه كان له فيها مال وعقار .

وبلغت القصة مسمع رسول الله فقال:" أما لو جاءني لاستغفرت له وأما إذا فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه ". *شرح الزرقاني ج: 3 ص: 90*وجاء الوحي من عند الله مؤدباً ومعلماً ، فقال:" يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَخونوا اللَّهَ والرَّسولَ وَتَخونوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمونَ "الأنفال : 27 وظل أبو لبابة مربوطاً في المسجد عشرين يوماً لا تفك قيوده إلا لأداء الصلاة ثم يعود إلى القيد من جديد حتى نزلت مغفرة الله تعالى له على رسوله ﷺ ، و أقبل جبريل يخبر الرسول ﷺ بأن الله عز وجل قد تاب على أبي لبابه بعد هذا الندم ، وبعد هذا التطهير ، وجاء قوله عز من قائل:{وآخَرونَ اعْتَرَفوا بِذُنوبِهِمْ خَلَطوا عَمَلاً صالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً عَسى اللَّهُ أَنْ يَتوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفورٌ رَحيمٌ } التوبة : 102. و انتهت البشرى إلى مسامع أبي لبابة ، فطار لها فرحاً وسعد بها كثيراً ،لكنه ظل في قيده فأبى ذلك ، وقال : والله لا يفكني من قيدي إلا رسول الل ﷺ ، وكأنه يريد بذلك أن يوثق توبته ، وأن يكون فك الرسول لقيده تأكيداً لغفران الله له وعفوه عنه ومحيت الهفوة من سجل أبي لبابه ،بفضل الله ورحمته ، وواصل حياته مجاهداً مستقيماً على الطريق ، وفياً بعهده،لا يخون ولا يهون .

وفي النهاية فإن الأمة التي لا أمانة هي التي تنتشر فيها الرشوة وتهمل الأكفاء وتبعدهم وتقدم الذين ليسوا أهلاً للمناصب، وهذا من علامات الساعة التي قد وقعت فقد جاء عن النبي أن رجلاً سأله عن الساعة فقال: ((إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، فقال: وكيف أضاعتها؟ قال: إذا وسِدَ الأمر لغير أهله فانتظر الساعة))، ومن الأمانة أن لا يستغل الإنسان منصبه الذي عين فيه من أجل منفعة له أو إلى قريبه،

كأن يأخذ زيادة على مرتبه بطرق ملتوية، إما بتناول رشوة وإما بتناول رشوة باسم هدية، يتناولها هذا الخائن بأي وسيلة كانت، ثم مع هذا يريد أن يحللها بنوع من أنواع التأويلات.

ألا فليعلم أن كل ذلك غش وخيانة وتلاعب بالدنيا، وما أخذ فهو سحت وأكل أموال الناس بالباطل لأنه ثمرة خيانة وغدر واستغلال للمنصب،فاسمع يرحمك الله ما قاله نبينا محمد فيما رواه مسلم: ((من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً - أي سرقة على وجه الخيانة- يأتي به يوم القيامة فقام إليه رجل من الأنصار كأني أنظر إليه. فقال: يا رسول الله: اقبل عني عمل. قال: ومالك؟ قال: سمعت تقول كذا وكذا. قال:و أنا أقوله الآن: من استعملناه منكم في عمل فليجأ بقليله وكثيره فما أوتي منه أخذ،وما نُهي عنه انتهى))، وقد أستعمل النبي رجلاً على جمع الصدقة فلما رجع هذا الرجل قال: هذا لكم،وهذا أهدي إلي. فخطب النبي فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: ((أما بعد فإني أستعمل رجالاً منكم على أمور ولاني الله، فيأتي أحدكم فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت لي فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ منه شيئاً إلا جاء يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء أو بقر له خوار أو شاة تيعر)).

وفي النهاية لا يسعنا إلا التأكيد على أن الأمانة ليستِ مقصورةً في معناها على حفظِ الأشياءِ المادّيةِ فحسْبُ، بل هي أشملُ مِنْ ذلكَ وأعمُّ؛ إذْ هيَ تشملُ الأمورَ الحِسيةَ والمعنوية، فالعدْلُ بينَ الرعيةِ والأولادِ والزوجةِ وغيرِهم مِنَ الأمانة، وقولُ كلمةِ الحقّ حيثُما كانتْ مِنَ الأمانة، والشهادةُ والتزكيةُ للناسِ مِنَ الأمانة،والمحافظةُ على أعراضِ الناس وحُرُماتِهم وأخلاقِهم مِنَ الأمانة.

وبالجُملةِ: فحِفظُ الدِّينِ بكلِّ ما فيه مِن أوامرَ وزواجرَ، هو مِن الأمانةِ التي استرعانا اللهُ تعالى إياها،فنحن مسئولون عن كل ما أمر الله تعالى به،وعن كل ما نهى عنه،مسئولون عن فرائض الله التي فرضها علينا لا ننقصها،مسئولون عن إقامة العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم،مسئولون عن ودائع الناس وأسرارهم ومجالسهم،فإن المجلس بالأمانات،لتكون الحياة كلها سعادة وهناءة،وإلا فالشقاوة والتعاسة .

فاللهم اجعلنا من الأمناء السعداء وجنبنا الخيانة الموجبة للشقاء .

التوكل

التوكل عمل قلبي من أفضل الأعمال و أنفعها للعبد،ولا سيما المجاهد أو من يعد نفسه للجهاد في سبيل الله تعالى، وحقيقة التوكل: هو غاية الاعتماد على الله سبحانه وغاية الثقة به، مع الأخذ بالأسباب المأمور بها وعدم الاعتماد عليها ولا التعلق بها.

وهو عبادة عظيمة تجمع بين تفويض الأمور إلى الله تعالى، وإحسان الظن به،والرجاء في رحمته ونصرته،وعدم الخوف إلا منه سبحانه؛ فهو الذي بيده النفع والضر،وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها،وبين الأخذ بالأسباب،والجد في السعي،وعدم التقصير أو التو اني،فهو يجمع بين راحة القلب وتعب البدن.

لذا وجب على المجاهد أن يقوي هذه العبادة في قلبه،ويسأل ربه صدق التوكل عليه،ويأخذ بالأسباب التي تحوِّل هذه العبادة من علم وعقيدة مجردة إلى عمل وحال يتحرك بها ويواجه الأخطار والمصائب والأعداء بها؛ لأن هناك فرقًا بين العلم بالتوكل والمعرفة به وبين كونه عملاً وحالاً.

وهذه الشعبة،أو هذا المقام أو الخُلُق الربَّاني، من المقامات التي تدخل فيها خلط وخبط، وسوء فهم عريض، حتى التبس التوكل بالتواكل واطراح الأسباب،ورويت في ذلك حكايات عن البعض بها مبالغات تخرج عن منهج الوسطية التي جاء بها الإسلام، كما تخرج عن نظام السنن التي أقام الله عليها هذا الخَلْق، وربطها بشبكة الأسباب والمسببات.

التوكل عبادة من أفضل عبادات القلوب، وخُلُق من أعظم أخلاق الإيمان، وهو - كما قال الإمام الغزالي - منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقرَّبين.

الدين عبادة واستعانة: (إياك نعبد و إياك نستعين) (الفاتحة: 5) والتوكل استعانة، والإنابة عبادة ،وقد ورد في السنة النبوية الشريفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:"لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً" *رواه أحمد والنسائي و ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح.*

هذا الحديث النبوي الشريف أصل جليل في توضيح فضيلة التوكل ومكانته في الإسلام، والتوكل في اللغة يقال على وجهين: يقال توكلت لفلان، أي:توليت له، ويقال: توكلت عليه أي: اعتمدته، ومعنى التوكل على الله: هو الاعتماد عليه، والإيمان به، والثقة بنصره ما دام الإنسان مقبلاً عليه مهتدياً بهديه: [وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ] {الحج:40}.

ولما كان التوكل الصحيح لا يتحقق إلا مع الإيمان الصادق قال سعيد بن جبير:التوكل جماع الإيمان، وقال وهب بن منبه: الغاية القصوى التوكل.

وقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لأتباعه في هذا الحديث أنهم لو صدقوا في إيمانهم، فصدقوا في توكلهم فأخذوا بأسباب ربهم، فاستعملوا ما وهبهم الله تعالى من طاقات وملكات، ووسائل،فاستشعروا الثقة بعون الله ونصره،لرزقهم الله رزقاً رغداً واسعاً، ولهيأ لهم من مواطن الفوز وثمرات التوفيق،ما يهيئه للطير التي تخرج من أعشاشها عند الصباح وهي جائعة، وتعود عند المساء وهي ممتلئة البطون، أو كما قال ابن الأثير في: النهاية، تغدو بكرة وهي جياع، وتروح عشاء وهي ممتلئة، وماذا تصنع الطيور؟ هل تنام في أكنانها بلا سعي أو عمل؟ لا، بل هي تغدو في الصباح خالية البطون، وتظل تطير بأجنحتها، وتضرب في آفاق الجو بطاقاتها، وتسعى وتكدح، وتجمع من هنا وهناك، حتى ترجع في آخر النهار، وقد نالت جزاء سعيها وكفاء جهدها.

وهذا يفيدنا أن من التوكل الأخذ بالأسباب،والتذرع بالعمل لتحقيق الأمل،لأن الله سبحانه هو الذي خلق الأسباب والوسائل الموصلة إلى الغايات،فإذا أخذ الإنسان بها، واستنفد جهده فيها، فإنه يكون قد صدق في توكله،لتقبله ما هيأ له ربه من أسباب ووسائل،ولانتفاعه بما يسَّر خالقه الكريم من طرق ومسالك.

ولو أن الإنسان أهمل هذا كله لكان معرضاً عن الله جل جلاله، متأبياً على ما وهب ويسر، فلا يكمل توكله بذلك، و إنما يكمل إذا آمن الإنسان و أيقن أن الله معه لأنه مع الله، ثم انطلق وكله عزيمة وهمة وثقة من النصر، متذكراً دائماً أن الله كالئه وراعيه، و أنه واهب التوفيق والنجاح، لمن أحسن استخدام الأسباب،وقرن هذا بالتقوى الثابتة،وإذا ما أصابه بعد هذا ما لم يكن في الحسبان أو مالا يستطيع بعزمه البشرى أن يدفعه، لم ييأس ولم يقنط، بل رضي بما قضى الله، واستعان به في دفع ما يؤلمه أو يصدمه،ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم:إن الله يلوم على العجز،ولكن عليك بالكيس.أي: العقل .فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وهذا معناه أن الله تعالى يؤاخذ عباده على الكسل والتبطل والعجز،ويدعوه إلى استخدام العقل القاضي بمواصلة العمل والاستمرار على بذل الجهد ما دامت هناك استطاعة، فإذا عرض للإنسان ما ليس في طاقته ولا في استطاعته، فليصدق في التوجه إلى ربه سائلاً إياه أن يكون عونه ونصيره، وأن يرفع عنه ما لا يستطيع.

ولعل هذا هو السر في الجمع بين التقوى والتوكل في حديث القرآن الكريم،حيث نجد التنزيل المجيد يقول:{ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}.{الطَّلَاق:3} .

وقد روي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرأ هذه الآية على أبي ذر وقال:لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم، أي: لو أنهم اتقوا ربهم حق التقوى،ونزلوا على حكمها في إتيان ما يجب إتيانه، وتجنب ما يلزم تجنبه، لكان ذلك مفتاح توفيقهم الواسع في أمور الدين والدنيا.

ولعل هذا أيضاً هو السر في أن القرآن قرن بين التوكل والإيمان، فأخبرنا أن الذين يتوكلون إنما هو المؤمنون، فقال عز من قائل:{وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.(آل عمران:122)

ولذلك قيل في حقيقة التوكل إنه: صدق اعتماد القلب على الله عزَّوجل في استجلاب المصالح ودفع المضار، ومن الواضح أن الاستجلاب و الدفع يستلزمان جهداً وعملاً وسعياً ومحاولة. وفسر الحسن التوكل بأنه:أن يعلم الإنسان أن الله هو ثقته.

ولقد دل القرآن المجيد على أن التوكل يصاحب العمل، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:{فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}.(آل عمران:159).

والمعنى كما في تفسير المنار: إذا عزمت بعد المشاورة في الأمر على إمضائه،على ما توجبه الشورى، وأعددت له عدة، فتوكل على الله في إمضائه،وكن واثقاً بمعونته وتأييده لك فيه،ولا تتكل على حولك وقوتك،بل اعلم أن وراء وما أتيته قوة أعلى و أكمل، يجب أن تكون بها الثقة، وعليها المعول،وإليها الملجأ إذا انقطعت الأسباب وأغلقت الأبواب!.

ومن الواجب علينا أن نؤكد في مقام الحديث عن التوكل أن التوكل ليس معناه البطالة وترك الأسباب، وأن الذين يفعلون ذلك عن جهالة أو ضلالة بحاجة إلى التبصيروالتقويم.

ولقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفهم منه: أيترك ناقته بلا عقال ويتوكل، أم يربطها ويتوكل؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: اعقلها وتوكل، وهذه العبارة تفيد أن التوكل لا يتعارض مع الاحتياط والأخذ بالأسباب.

ولقد جاء في الحديث المرسل: التوكل بعد الكيس، أي: بعد التعقل في العمل وبذل الجهد والاحتياط، وسئل الإمام أحمد بن حبل عمن يقعد ولا يكتسب ويقول: توكل على الله، فقال: ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله،ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب.

وقدم على عمر بن الخطاب ناس من اليمن، فقال لهم: من أنتم ؟ فأجابوا:نحن المتوكلون. فقال: بل أنتم المتواكلون،إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله!

وهنا يحسن أن نعرف الفرق بين التوكل والتواكل، فالتوكل إيمان بالله وثقه فيه واستعانة بحوله وقوته، مع بذل الجهد والطاقة، والتواكل تضييع للعمل،وإلقاء للعبء على الغير، ولذلك نجد الأصفهاني في: مفردات القرآن يقول:وواكل فلان إذا ضيع أمره متكلاً على غيره، وتواكل القوم إذا اتكل كلاً منهم على الآخر. ويعجبني قول من قال: فيما يرويه يوسف بن أسباط: اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له!.

ولقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى السعي وتأمر بالعمل،فقال الله تعالى:{وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}.(النَّجم:39).وقال:{وَقُلِ اعْمَلُوا}.(التوبة:105). وقال:{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ}.(الجمعة:10). وقال:({هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}.(الملك:15).

وأمر القرآن بأخذ الحيطة والحذر، فقال:{ خُذُوا حِذْرَكُمْ}.(النساء:71).وقال:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ}.(الأنفال:60) إلى غير ذلك.

وبجوار ذلك تكررت مادة التوكل في القرآن عشرات المرات، و اتجه فيها الأمر بالتوكل إلى الأخيار والأبرار، فأمر الله تعالى نبيه بالتوكل فقال له:{وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا}.(الفرقان:58}

وقال:{وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ} (لشعراء:217)وقال:{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ}.(التوبة:129).وقال القرآن على لسان هود عليه السلام:{إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ}.(هود:56). وقال على لسان شعيب عليه السلام:{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} (هود:88).وقال على لسان والد يوسف عليه السلام:{ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ}.يوسف:67.

فكيف نجمع بين آيات الأمر بالعمل و آيات الأمر بالتوكل؟ نجمع بين هذه الآيات وتلك بأن نقول: إن التوكل هو اعتماد على الله تعالى وثقة به و إيمان بنصره، على حين يبذل المرء كل ما يستطيع من جهده وطاقته في ميدان العمل والسعي، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وليس من التوكل أبداً أن يدع المرء أولاده بلا سعي من أجلهم قائلاً: إني وهم متوكلون على الله، وإلا لكان هذا خروجاً على الحديث الذي يقول: كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت، وهذا سيد البشرية وإمام الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم وهو خير المتوكلين، لم يترك شرعة العمل طيلة حياته، فقد تاجر ورعى و اشتغل وقد جاهد وهاجر، وقد رتب ودبر، وقد استخدم كل ما يسر الله له من أسباب في أمور الدين والدنيا.

وليس من التوكل أبداً ترك التداوي مع القدرة عليه، فقد كان النبي يتداوى ويداوم على ذلك، وهو يخبرنا أن الذي خلق الداء خلق الدواء، فإذا ترك الإنسان استعمال الدواء فكأنه تأبى على الله تعالى، فلا يكون متوكلاً عليه حقاً، بل يكون في الو اقع معرضاً عنه مستخفاً بنعمته التي هيأها لعباده...

ولا يجوز للمتواكلين أن يتعللوا بقصة إبراهيم مع ولده إسماعيل وأمه هاجر،وفيها أن إبراهيم عليه السلام ترك زوجته وولده بواد غير ذي زرع، ولما هم بالرحيل تعلقت به هاجر وقالت له: إلى من تدعنا؟ فقال: إلى الله. فقالت:رضيت بالله.

لا وجه للتعلل بهذه القصة لأن فيها أموراً تبعدها عن معنى التواكل وهي:أولاً: أن ما فعله إبراهيم عليه السلام كان بوحي من الله تعالى، و إبراهيم لا يسعه إلا تنفيذ الوحي، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون،وثانياً:لقد ترك إبراهيم لزوجته وولده كما ذكرت القصة. جر اباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، وثالثاً: مع علم إبراهيم وهاجر بأن الله الذي أمره بذلك لا يضيعهما أخذ يرجو ربه في الرحمة بهما والتفضل عليهما فيقول:{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}.(إبراهيم:37).ورابعاً: لم تقعد هاجر. مع رضاها بقضاء الله ومع توكلها عليه، ومع ثقتها بأنه سبحانه لن يضيعها وولدها. بل سعت عندما احتاجت إلى الماء، حتى هداها الله إلى بئر زمزم كما هو معروف...

وللصوفية في التوكل كلمات كثيرة فنجد من بين الصوفية من يصور لنا التوكل تصويراً يحسن الجمع بين الاعتماد على الله سبحانه، وبذل الجهد والعمل،فهذا مثلاً هو سهل التستري يقول: من طعن في الحركة. السعي والكسب. فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل، فقد طعن في الإيمان،فالتوكل حال

النبي صلى الله عليه وسلم والكسب سنته . طريقته . فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته، نسأل الله عزَّوجل أن يرزقنا صدق التوكل.

الرحمة

الرحمة خُلُق من أنبل الأخلاق الإنسانية التي ينبغي على المسلم أن يتخلّق بها؛لأنه يتجاوز مسألة الحقوق والواجبات إلى مرتبة المروءة والشهامة والتبرع والإحسان،وإن طمع المسلم في ثواب الله-تعالى- واعتقاده أنّ الخَلقَ عيالُ الله،والشفافية التي يوجدها الإيمان،إنّ كل ذلك يدفع المسلم دفعاً إلى أن يكون نموذجاً في الرقة والر أفة ومد يد العون،وهذا الخلق الكريم هو الذي يملأ الفجوات التي تسببها طوارئ الحياة،ويسببها القصور في النظم الثقافية والاجتماعية،وهو الذي يضفي على الحياة معنىّ لا يضفيه أي شيء آخر.وبهذه المعاني جاءت المعاجم اللغوية لكلمة الرحمة.

معنى الرَّحْمَة لغةً:

الرحمة: من رحمه يرحمه، رحمة ومرحمة، إذا رقَّ له، وتعطف عليه، وأصل هذه المادة يدلُّ على الرقة والعطف والر أفة، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضًا.ومنها الرَّحِم: وهي عَلاقة القر ابة.وقد تطلق الرَّحْمَة، ويراد بها ما تقع به الرَّحْمَة، كإطلاق الرَّحْمَة على الرِّزق والغيث.

معنى الرَّحْمَة اصطلاحًا:

الرَّحْمَة رقَّة تقتضي الإحسان إلى الْمَرْحُومِ، وقد تستعمل تارةً في الرِّقَّة المجرَّدة، وتارة في الإحسان المجرَّد عن الرِّقِّ..

وأعظم نموذج تستخلص من سيرته فضيلة الرحمة هو النبي-صلى الله عليه وسلم-وهذه الصورة المستخلصة من سيرته مهما كانت تعجز عن الوصول إلى كنه رحمته صلى الله عليه وسلم،فرحمته امتدت طولا فبلغت عنان السماء،و اتسعت عرضاً فبلغت أقطاب الأرض،فلا يدري المتحدث عن هذه الرحمة أيتحدث عن رحمته بالعالمين ؟ أم يتحدث رحمته بالضعفاء والفقراء والمساكين ؟ أم يتحدث عن رحمته بالأطفال والوالدين وكبار السن؟. أم يتناول في دراسته رحمته بالنساء ؟ أم يخص الحديث عن رحمته بالخدم ؟ أم بالجهلة والمذنبين؟ أم رحمته بالمؤمنين في صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وجهادهم ؟ أم رحمته عن

المصائب والكوارث والشدائد والموت وعند القبر؟ أم رحمته بعد الموت ويوم القيامة ؟.هذه مجالات تعجز الموسوعات عن توفيتها حقها.

والنصوص التي تثني على هذا الخُلُق العظيم كثيرة،وتظهر شموليته رحمته بكل الجو انب المختلفة منها: قوله-سبحانه-:{محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم}[الفتح:29].وورد في الحديث الصحيح:"من لا يَرْحَم الناسَ لا يرحمه الله".وقد كان سلوكه-عليه الصلاة والسلام- كله رقة ورحمة حتى على مستوى التشريع وبعض مسائل العبادة؛حيث ورد عن عائشة-رضي الله عنها-أنها قالت:"إن كان رسول الله-- صلى الله عليه وسلم --ليدع العمل،وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس،فيُفرَضَ عليهم".

قال-عليه الصلاة والسلام-:"إني لأقوم إلى الصلاة،وأريد أن أطوِّل فيها،فأسمع بكاء الصبي،فأتجوز في صلاتي(أي يخففها)كراهية أن أشقّ على أمتي".فهل يع الدعاة هذا الدرس؟.

إن أدبياتنا تعلّمنا أنّ خُلُق الرحمة،لا ينبغي أن يوجَّه سلوكنا تجاه البشر،فحسب و إنما تجاه الحيوان أيضاً؛فحبس امرأةٍ لهرَّة-كما ورد في الحديث-حتى ماتت جوعاً كان سبباً في دخولها النار،وسقي بغيّ من بغايا بني إسر ائيل لكلب كاد يقتله العطش-كان سبباً في مغفرة الله لها.فهل يع ذلك أصحاب العقول الذين لا يرحمون إنساناً ولا حيو اناً ولا نباتاً؟؟.

في الرحمة يتم العفو عن الزلاّت،والإغضاء عن التقصير،وتقدير الظروف الخاصة،وذلك كله مما يؤهّل المرء لإقامة علاقة طيبة مع إخو انه و أبناء مجتمعة القريب منهم والبعيد.

والرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه!وليست رحمته من باب الرقة وغيرها،بل إن رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت. فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة،ولذلك كان من صلاة الملائكة له:{ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا و اتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم} .

وعن عمر بن الخطاب: قدم على رسول الله بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها،إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته. فقال رسول الله . صلى الله عليه وسلم :أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا:لا والله- وهى تقدر على أن لا تطرحه!- قال: فالله تعالى أرحم بعباده؟ من هذه بولدها.

وكثير من أسماء الله الحسنى ينبع من معاني الرحمة والكرم والفضل والعفو. وقد جاء في الحديث القدسي:"إن رحمتي تغلب غضبي " ، أي أن تجاوزه عن خطايا البشر يسبق اقتصاصه منهم وسخطه عليهم وبذلك كان أفضل الرحماء:{وقل رب اغفر وارحم و أنت خير الراحمين} . ما ترى في الأرض من تواد وبشاشة وتعاطف وبر أثر من رحمة الله التي أودع جزءا منها في قلوب الخلائق، فأرق الناس أفئدة أوفرهم نصيبا من هذه الرحمة وأرهفهم إحساسا بحياة الضعفاء .

أما غلاظ الأكباد من الجبارين والمستكبرين فهم في الدرك الأسفل من النار،وفى الحديث:".. إن أبعد الناس من الله تعالى القاسي القلب ". وكان رسول الله يعد جمود العين واستغلاق القلب من الشقاء.

ولقد أراد الله أن يمتن على العالم برجل يمسح آلامه،ويخفف أحز انه، ويرثى لخطاياه، ويستميت في هدايته،ويأخذ بناصر الضعيف،ويقاتل دونه قتال الأم عن صغارها،ويخضد شوكة القوى حتى يرده إنسانا سليم الفطرة لا يضرى ولا يطغى.. فأرسل "محمدا " .صلى الله عليه وسلم .،وسكب في قلبه من العلم والحلم،وفى خلقه من الإيناس والبر،وفى طبعه من السهولة والرفق،وفى يده من السخاوة والندى،ما جعله أزكى عباد الله رحمة،وأوسعهم عاطفة،وأرحبهم صدرا.

ولذلك قال فيه:{فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك}. وقد لازمته هذه الفضائل العذبة في أعصب الساعات عندما حاول المشركون في"أحد" اغتياله،وألجأوه إلى حفرة ليُكب فيها:ونظر إلى زهرة أصحابه فوجدهم مضرجين بدمائهم على الثرى، ونظر إليه بقية أصحابه فإذا خده قد شق وسنه قد سقطت.. في هذه الأزمة قيل له:ادع على المشركين؛فغلبه رفقه وجعلت نفسه العالية تستميح لأعدائه العذر: فكان دعاؤه. " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ". إن القلوب الكبيرة قلما تستجيشها دو افع القسوة فهي أبدا إلى الصفح والحنان أدنى منها إلى الحفيظة والأضغان .

إن القسوة في خلق إنسان دليل نقص كبير، وفى تاريخ أمة دليل فساد خطير.. فلا عجب إذا حذر الإسلام منها واعتبرها علة الفسق عن أمر الله،وسر الشرود عن صراطه المستقيم:{ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون}.

وقد أمر الإسلام بالتراحم العام،وجعله من دلائل الإيمان الكامل، فالمسلم يلقى الناس قاطبة وفى قلبه لهم عطف مذخور وبر مكنون، فهو يوسع لهم ويخفف عنهم جهد ما يستطيع:قال رسول الله . صلى الله

عليه وسلم :"لن تؤمنوا حتى ترحموا،قالوا:يا رسول الله،كلنا رحيم. قال:إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة" .

أجل: فإن الرجل قد يهش لأصدقائه حين يلقاهم، وقد يرق لأولاده حين يراهم،وذلك أمر يشيع بين الكثير. بيد أن المفروض في المؤمن أن تكون دائرة رحمته أوسع،فهو يبدى بشاشته،ويظهر مودته ورحمته لعامة من يلقى... وقد جاءت الأحاديث تترى حاثة على هذه الرحمة الشاملة. فقال رسول الله .صلى الله عليه وسلم :"من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " زاد فى رواية" ومن لا يغفر لا يُغفر له".وقال:"من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه من في السماء ". وقال:"طوبى لمن تواضع في غير منقصة،وذل في نفسه من غير مسألة ، و أنفق مالا جمعه في غير معصية،ورحم أهل الذلة والمسكنة،وخالط أهل الفقه والحكمة " .

والذلة في غير مسألة تعنى السكينة للمؤمنين والليونة معهم، وقد وصف الله المجتمع المسلم أنه متماسك بهذا العطف المتبادل فقال عن أهله:{أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين}. وقال:{أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِرُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}. وقد تسأل ما معنى ذكر الشدة في سياق الحديث عن الرحمة؟ والحق أن الإسلام يوصى بالرحمة العامة لا يستثنى منها إنسانا ولا دابة ولا طيرا. والنصوص التي سلفت تؤيد هذا الشمول.

بيد أن هناك من الناس والدواب من يكون مصدر خطر على غيره ومثار رعب وفزع، فيكون من رعاية الصالح العام للجماعة كلما أن يحبس شره، ويحاصر ضرره. وقد تكون الشدة معه رحمة به كذلك وتقويما لعوجه. والإسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم. وقد قال الله لرسول:{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}.

وسور القرآن الكريم مُفتتحة كلها بـ" بسم الله الرحمن الرحيم " . لكن ذئاب البشر أبوا إلا اعتراض الرحمة المرسلة؛ ووضع الجنادل في مجراها حتى تنقطع عن الناس مواردها، فهلكوا بعيدا عنها في أودية الحيرة والجهالة. فلم يكن بد من إزالة هذه العوائق،والإغلاظ لأصحابها ويوم ينقطع تعرضهم وتحديهم تشملهم هذه الرحمة الجامعة فليس في هذه الرحمة قصور، و إنما القصور فيمن حرم نفسه منها ألست ترى أن رحمة الله وسعت كل شيء ! ومع ذلك فلن ينالها مشرك ولا جحود:{ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي} .

كما تقول: هذه القاعة تتسع ألف جالس. ولكن لا يؤذن بدخولها إلا لمن يحمل بطاقة،فإذا رفض البعض حمل البطاقة المعهودة فحرموا من الدخول وبقوا في الخارج فليس ذلك قدحا في سعة القاعة

.ومثل ذلك قول رسول الله .صلى الله عليه وسلم :"كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى. فقالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة. ومن عصاني فقد أبى" .

وقد تأخذ الرحمة الحقة طابع القسوة وليست كذلك:إن الأطفال عندما يساقون إلى المدارس كرها،ويحفظون الدروس زجرا،ولو تركوا وأهواءهم لقتلهم اللهو واللعب ولشبوا لا يحسنون صنعا،ولذلك قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك راحما   فليقس أحيانا على من يرحم

والطبيب عندما يجرى بالجسم جراحة، يستخدم مبضعهة لتمزيق اللحم، وقد يضطر لتهشيم العظام وبتر أعضاء،وما يفعل ذلك إلا رحمة بالمريض !! فليست الرحمة حنانا لا عقل معه،أو شفقة تتنكر للعدل والنظام.

كلا إنها عاطفة ترعى هذه الحقوق جميعا، إن منظر المشنوق وجسمه يتأرجح في الهواء وعيناه تعشقان الضوء وتطلبان النجاة، منظر قد يستدر العطف،ولو أجيبت هذه العاطفة السريعة،وأطلق سراح القاتل لامتلأت الأرض فوضى.. والرحمة الحقة في كبت هذا الشعور. {ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون}.

إن القسوة التي استنكرها الإسلام جفاف في النفس لا يرتبط بمنطق ولا عدالة، إنها نزوة فاجرة تتشبع من الإساءة والإيذاء،وتمتد مع الأثرة المجردة والهوى الأعمى .أما الرحمة فهي أثر من الجمال الإلهي الباقي في طبائع الناس يحدوهم إلى البر، ويهب عليهم في الأزمات الخانقة ريحا بليلة ترطب الحياة وتنعش الصدور.

قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم :"جعل الله الرحمة مائة جزء،و أنزل في الأرض جزءا واحدا،فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه" . وفى روا ية أخرى:"إن الله تعالى خلق- يوم خلق السموات والأرض- مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة واحدة، فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضه على بعض ".

وكما ينمى العقل بشتى المعارف فيزكو، تنمى هذه الرحمة بشتى الأساليب لتتسع وتربو.. أما إذا تركت لتذوى وتموت فقد أصبح صاحبها حطبا لجهنم : عن أبى هريرة: سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم .صلى الله عليه وسلم .يقول:"لا تُنزع الرحمة إلا من شقي " .

نصوص أخلاقية من مؤلفات الدكتور العلامة محمد عبد الله دراز

الفصل الثاني :كلمات في مبادئ علم الأخلاق

المبحث الأول:الأخلاق وتقسيمها إلى غريزية ومكتسبة.

المبحث الثاني:علم الأخلاق،وتقسيمه إلى نظري وعملي.

المبحث الثالث:الاعتراضات على علم الأخلاق النظري.

تقرير الاعتراض الأول؛وهو التناقض في فكرة الفلسفة العملية.

تقرير الاعتراض الثاني؛وهو أن بحوث الأخلاق النظرية جهود ضائعة.

بسط الاعتراض الثالث

شرح الاعتراض الرابع

المبحث الرابع:الأخلاق الفلسفية،والأخلاق الدينية.

من حيث الموضوع

من حيث واضع القانون ومستنده.

من حيث بواعث العمل وأهدافه وأجزيته.

المبحث الخامس: علاقة علم الأخلاق بالتربية .

المبحث الأول:الأخلاق وتقسيمها إلى غريزية ومكتسبة

يقول صاحب القاموس :" الخُلق هو الطبع والسجية..."

ويقول ابن الأثير في النهاية:"حقيقة الخُلق أنه لصورة الإنسان الباطنة(وهي النفس وأوصافها ومعانيها)بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة".

ويقول ابن مسكويه:"الخُلق حالٌ للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية".

وزاد الغزالي بسطاً فقال:"يقال فلان حسن الخَلق والخُلق،أي حسن الظاهر والباطن..فالخُلق عبارةٌ عن هيئة راسخة في النفس،تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر،من غير فكر ولا روية".

الخُلق إذاً هيئةٌ أو صفةٌ للنفس...غير أن للنفس قوى مختلفة،ووظائف متنوعة ،فهناك ملكات الإدراك،والتفكير،والحكم،والتخيل،والتذكر،وهناك الوجدانات والانفعالات ،وهناك الغرائز والنزعات، فإذا كانت هذه القوى النفسية كلها تصدر عنها آثارها في سهولة ويسر،هل يسوغ لنا أن نسمي شيئاً منها خُلقاً؟..

كلا!.نحن بحاجة إذا إلى مزيد إيضاحٍ وتحديد،تتميز به حقيقة المقصود من هذه التسمية،ويتجلى به الإبهام الذي تنطوي عليه التعريفات السابقة.

ونبادر فنقول:إن الخلق ليس صفة للنفس في جملتها،ولكن في جانب معينٍ من جوانبها،وليس هذا الجانب هو جانب العقل والمعرفة،ولا جانب الشعور والعاطفة، و إنما هو جانب القصد والإرادة.

ونضيف إلى هذا التقييد تقييد آخر،فنقول:إن الخُلق يتعلق بنوع خاص من الأهداف الإرادية،وهو تلك الأهداف التي ينشأ عن اختيارها وصف يعود على النفس بأنها خيرةً أو شريرةٌ.

من هاتين الخاصيتين نستطيع أن ننظم التعريف التالي:"الخُلق هو قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح(إن كان الخلق حميداً)أو إلى اختيار ما هو شر وجور(إن كان الخلق ذميماً).

هكذا تتميز الحقيقة الخلقية عما عداها من الصفات النفسية :

ألا ترى أن وجود الذاكرة أو ضعفها،وسلامة الذوق أو سقمه،وبراعة الخيال أو تبذله،وحدة الذهن أو تبلده،لا مدخل لها في موازين الأخلاق،ولا يسرى منها الحكم على صاحبها بأنه برّ أو فاجر،تقي أو آثم[1] ؟.

ثم ألا ترى أن من الأعمال الإرادية نفسها طائفة يستوي فعلها وتركها،فتدخل بذلك في نطاق المباحات بحيث لا يترتب على فعلها مدح ولا ذم،ولا يقال لصاحبها إنه أحسن أو أساء؟ فهي خارجة أيضاً عن موضوع البحث. وكذلك الأعمال الإرادية التي يترتب عليها مدح أو ذم،بمعناهما الأدبي أو الفني،كإجادة البيان،و إتقان التصوير،أو إساءتهما،فهنالك يكون المدح والقدح والإحسان والإساءة أحكاماً تشابه في صورتها الأحكام الأخلاقية،ولكنها في المعنى ليست منها بسبيل،لأن الذي لا يحسن التعبير أو التصوير لا يقال إنه آثم أو شرير.

هذا وينبغي ألا يشتبه علينا الفرق بين الخلق والسلوك.

فالخُلق كما قلنا أمر معنوي،وهو صفة النفس وسجيتها.أما السلوك فهو أسلوب الأعمال ونهجها وإعادتها،وما هو إلا مُظهر الخُلق ومر آته ودليله.

و إنه لكي تكون الأفعال علامة صحيحة على خلق صاحبها ، لا يد أن يجتمع فيها عنصران :

أحدهما : أن تتكرر الأفعال على نسق معين حتى تكون عادة مستقرة ،وحتى تدل على قوة راسخة ونزعة ثابتة إلى هذه الأفعال ،فإن الذي يدل على خُلق المرء هو جملة تصرفاته في عامة الأوقات والأحوال المختلفة لا في النادر منها

الثاني :أن تقوم الأمارات على أن هذه الأفعال صادرة بطريقة انبعاثية عن النفس، وليست أثراً لأسباب خارجية،من الخوف أو الرجاء ،أو الحياء أو الرياء،أو نحوهما،مما يجعل صدور الأعمال تكلفاً وتصنعاً على خلاف سجية صاحبها،ويجعلنا نحكم بأن خلُقه الحقيقي على النقيض مما يوحي به ظاهر هذه الأفعال .

وكما تتجلى العادات المستقرة في ثوب إيجابي،وقد تبدو لنا في صورةٍ سلبية.وهنا أيضاً ينبغي أن تكون في يقظة وحذرٍ عند إصدار أحكامنا،إذ قد يخفى علينا الخُلق الحقيقي،لعدم البواعث والأسباب التي تقتضي ظهوره،كالفقير الذي لا يجد ما ينفقه، مع أن في نفسه نزعة البذل والسخاء،فلا نحكم عليه بالبخل

---

1 - نعم إذا استعملت هذه الملكات قصداً وعمدا،بنية إصلاح أو إفساد ،كان هذا الاستعمال نفسه داخلاً تحت سلطان القانون الأخلاقي،من حيث هو عمل الإرادة،لا من وجه آخر .

لمجرد عدم إنفاقه،وكالشره الذي لا يجد ما يتناوله،فلا نحكم له بالعفة حتى تتهيأ الملابسات التي تبدي لنا كامن سجيته وشيمته.

سيقول قائل: إذا كان الإنسان كما ذكر هو مزاج روحه،وهيئة نفسه الراسخة فيها،على غرار الصورة الخلقية لبدنه،ألا يكون ذلك اعترافاً من أول الأمر بأن الأخلاق فطرية دائماً،لا سبيل إلى تغيير ما وجد منها،ولا إلى اكتساب ما ليس بحاصل فيها؟وهذا الاعتراف ينطبق بلا ريب على بعض وجوه النظر في المسألة،ولكنه لا يساير جملة المذاهب فيها،فإذا سلمتموه أصبح علم الأخلاق وليس له موضوع متفق عليه،مسلم الثبوت في نفسه.

نقول:كلا،إن التعريفات للخلق لا تنطوي على الاعتراف بشيء من هذه اللوازم، ذلك أننا نسمي خلقاً كل قوة إرادية راسخة،نزاعة إلى الخير أو إلى الشر،سواءً أكان هذا الرسوخ في كل أحواله من عمل الفطرة والجبلة ليس غير،كما يقول أهل الجبر،أم كان يحصل تارة بالجبلة والغريزة،وتارة بالكسب والرياضة،كما يقول غيرهم.

فها هنا إذاً مذهبان،يجمل بنا تعرفهما،وبسط وجهة نظرهما.

فأما غلاة أهل الجبر،فهذا نموذج من أقوالهم:

يقول شوبنهاور(الفيلسوف الألماني):يولد الناس أخياراً أو أشراراً،كما يولد الحمل وديعاً،والنمر مفترساً.وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم،كما يصف التاريخ الطبيعي حياة الحيوان.

ويقول كانت(الفيلسوف الألماني أيضاً):إن الذي يشاهد موقف الإنسان في ظرف معين،ويعرف سوابق تصرفاته في مثل هذا الموقف،يستطيع أن يتنبأ تنبؤاً صادقاً بما سيفعله في هذا الظرف المعين،كما يتنبأ العالم الفلكي بكسوف وخسوف القمر في ساعة محدودة.

ويقول سبينوزا(الفيلسوف الهولندي):إن أفعال الناس،كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية، تحدث ويمكن استنتاجها بالضرورة المنطقية الهندسية،كما يستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه الثلاث تساوي زاويتين قائمتين.

ويقول ليفي بريل(لفيلسوف الفرنسي):إن ميولنا الحسنة أوالقبيحة التي نجيء بها إلى هذا العالم عند ولادتنا،هي طبيعتنا.فكيف نكون مسؤولين عن طبيعة هي لست من عملنا،أو على الأقل ليست من عملنا الشعوري والاختياري؟.

ويقول هيوم (الفيلسوف الإنجليزي): إن شعورنا بالحرية ليس إلا وهماً خداعاً.

أولئك فريق من فلاسفة أوربا،غلب على عصرهم البحث في القوى المادية وطبائعها،ورأوا ما فيها من قوانين علمية ثابتة،فأرادوا أن يبسطوا نتائجها على سائر العلوم...حتى الاجتماعية ،والأخلاقية.فهم لذلك يصورون لنا الإرادة الإنسانية سجينة في نطاق حديدي من الغرائزوالطبائع،ويصورون لنا البشرية كلها عاجزة عن التحول والتطور.

ففيم إذاً كان إنزال الكتب وإرسال الرسل؟ وفيم إذاً وضعت الشرائع والقوانين؟وفيم كان ويكون عمل المؤمنين والمربين؟ألا يكون ذلك كله عناءً بغير جدوى؟أو لا تكون دراسة الأخلاق نفسها ملهاة أو شبه ملهاة؟.

أما أنصار الحرية والتقدم فإنهم لا يرون في هذه المقالات جميعها إلا ضروباً من الدعوى المجردة،أو السفسطة المموهة،أو الخلط بين موضوع الأخلاق وغيره كما نبينه فيما يلي:

1-وأول ما نلاحظه على هذه الأقاويل شذوذها على إجماع المفكرين الأسبقين،فإن هؤلاء المفكرين وإن اختلفوا في شأن الفطرة الإنسانية على مذاهب ثلاثة[2]،إلا أنهم من جهة جعلوا هذه الفطرة عامة في جنس

---

2 - أحدها: أن الإنسان خير بطبعه،والشر عارض له،وهو مذهب المتفائلين أمثال جان جاك روسو،وينسب إلى سقراط والرواقيين.والثاني:أن الإنسان شرير بطبعه،والخير طارئ عليه،وهو مذهب المتشائمين،كالبوذية وأشباههم، ولعله من هؤلاء سرى إلى الكنيسة المسيحية،حيث ترى أن الإنسان منذ خطيئة آدم قد انقلب شريراً لا حيلة في إصلاحه بنفسه، ولا غنى له عن منقذ ومخلص إلهي..تلك النظرية التي بنوا عليها عقيدة الفداء وما يتبعها.والمذهب الثالث:أن الإنسان خلق مستعداً للخير والشر جميعاً،وهو قول جمهور الفلاسفة وعلماء النفس والتربية في هذا العصر،وهذا مذهب وسط جامع، سبقهم غلى تقريره الإمامان الغزالي وابن خلدون. غير انهما يضيفان إليه أن الإنسان خلق إلى الخير اميل منه إلى الشر. وقد فصلا مذهبهما تفصيلاً يتبين منه وجه التوفيق بين المذاهب كلها.ذلك أن من نظر إلى ما في الإنسان من العنصر الروحي الملكي(كما في عبارة الغزالي)أو عنصر النفس الناطقة(كما في تعبير ابن خلدون)قال إنه خير بطبعه. من نظر إلى العنصر الجثماني أو الحيواني قال بعكس القول الأول:ومن نظر إليهما معاً كما هو الأصوب قال بالاستعداد للأمرين جميعاً.

*ولا يفوتنا هنا أن نبين اتجاه النصوص الإسلامية في هذه القضية،وأن فيها ما يشهد لهذا المذهب الوسط،مذهب الاستعداد المزدوج،ففي القرآن الكريم{إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً}سورة الإنسان:2.{وهديناه النجدين}سورة البلد:10.{ونفس وما سواها *فألهمها فجورها وتقواها}سورة الشمس:7، 8.بل فيها ما يشهد في الوقت نفسه لأن هذه الفطرة المزدوجة أقرب في أصلها إلى السلامة والاستقامة.{لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}سورة التين:4.{فطرت الله التي فطر الناس عليها}سورة الروم:30.وفي الحديث:"كل مولود يولد على الفطرة،فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"حديث أخرجه مسلم -كتاب القدر- باب معنى كل مولود يولد على الفطرة 6697.نعم إن هذين النصين الأخيرين واردان في عقيدة الحق،لا في إرادة الخير،ولا خفاء في أن الفطرة الأولى في المسألة الاعتقادية هي فطرة التوحيد،وأن عقائد الشرك والوثنية أعراض طارئة،بل أمراض متطفلة،من أثر الإتباع والمحاكاة.وأما الفطرة الأولى في الناحية العملية فقد يكون من السائغ الحكم فيها بالخيرية على أصل النشأة ،آخذاً من آية "التقويم"المشار إليها آنفاً ولكن من الصعب تعميم هذا الحكم في الأجيال والطبقات والأفراد، ولا سيما إذا لاحظنا اختلاف عامل الوراثة وما قد ينقله من الطباع الحميدة أو الذميمة عن الآباء ومهما يكن من أمر فإن أسبقية أحد الطبعين إلى الوجود لا يعني مطلقاً عدم قابليته للتبدل إلى أحسن أو أسوأ، خلافاً لما يزعمه أعداء التربية والتعليم*

البشر،فلم يزعموا أنها خيرة في البعض شريرة في البعض،بل هي إما هذا،وإما ذاك،وإما كلاهما معاً،في الجميع.

ومن جهة أخرى فإنهم اتفقوا ثلاثتهم على قبول هذه الفطرة للتغيروالتبدل، وذلك إما لانتزاع هذه الفطرة وتركيها،(كما في المذهب الثالث)وإما لمرونتها وقبولها للإنقلاب (كما في المذهبين الأوليين).

2- فإذا سلمنا أن فطرة الخيروالشر ليست موزعة على السواء في البشر،واعترفنا بأن بعض[3] الناس يولد خيراً بطبعه،وبعضهم يولد شريراً بطبعه،فإننا نفهم من هذه الأسبقية في ظهورأحد الطبعين منذ الطفولة أن يكون التحول إلى الطبع المقابل له أصعب و أبطأ،لتوقفه على عوامل خارجية جديدة،لكن أي دليل يدل على أن الطبع البدائي الذي يولد عليه الحيوان،بل الإنسان،يصل إلى ذلك الحد الذي وصفوه لنا من الجمود والاستعصاء على كل تحويلٍ وتبديل؟.

يجيب الجامدون المتشائمون،وهم الذين يسميهم الغزالي أهل البطالة والكسل، محتجين على دعواهم بحجتين:

الأولى-مقايسة نظرية،وهي أنه كما لا يمكن الإنسان تحويل خلقته الظاهرية من الدمامة إلى الوسامة،كذلك لا يمكنه تغيير طبيعته الباطنة من الشرية إلى الخيرية ،إذ لا فرق بين فطرة وفطرة:كلاهما من صنع الله ،الذي لا تبديل لخلقه.

الحجة الثاني-تجربة عملية-.وهي أن كثيراً من أهل المجاهدة والرياضة حاولوا في أنفسهم تحطيم قوتي الشهوة والغضب،وإسكات غريزتي الأمل والألم،فباءوا بالفشل.

وإذا كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لاكتساب الخلق الحميد،وقد ثبتت استحالتها،كانت غايتها محالة كذلك . ونحن ندحض هاتين الحجتين،واحدة واحدة،على عكس ترتيبهما:

---

3 - وقد يستأنس لهذا التنويع في أصل الجملة بما في حديث :"الناس معادن كمعادن الذهب والفضة"حديث أخرجه مسلم-كتاب فضائل الصحابة-باب خيار الناس حديث رقم 6401.وحديث وفد عبد القيس الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم لرئيس الوفد:"إن فيك خصلتين يحبهما الله:الحلم والأناة"ثم قال له:"جبلك الله عليهما"حديث وفد عبد القيس- أخرجه الإمام مسلم-كتاب الإيمان- باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من يبلغه ج 2ص 131وما بعدها. كما أنه يمكن تأييده بالتجارب النفسية المتكررة التي ثبت بها اختلاف طبائع الأطفال منذ نشأتهم،وظهور بعضهم مبكراً بطابع الفضيلة وبعضهم بطابع الرذيلة والشذوذ الخلقي وبعضهم بطابع عادي غير متميز في أحد الجانبين.ولكن ليس في النصوص ولا في التجارب ما يدل على جمود هذه الطباع واستعصائها على التهذيب.

3-أما الحجة العملية فإن الدليل التجريبي قائم على عكس ما زعموا فيها،وفق الإنسان في كل عصوره إلى نقل طباع الحيوان من النفور إلى الإلف،ومن الصعوبة والحزونة إلى السلاسة والانقياد،ومن اعوجاج السيرواضطرابه إلى اعتدائه و انتظامه..

حتى إن الإنسان ليرقِص الخيل،ويلاعب الطير،ويعلم الجوارح ألا تطعم مما تمسكه لربها وهي في أشد الحاجة إليه..فإذا كان هذا هو الشأن في غرائزالعجماوات، فكيف بالغرائزالإنسانية التي أثبت علم النفس المقارن أنها أسلس قياداً،وأعظم مرونة،بسبب تنوعها وتعارضها،وقبولها للمزج والتعديل بينها بترجيح بعضها على بعض؟.

4- ولو سلمنا جدلاً استعصاء الطباع الإنسانية في أنفسها على المحو والإثبات،فإننا لا نسلم استعصاءها على التهذيب والتنظيم.ألا و إننا ليس يلزمنا في تصحيح مذهبنا أن نثبت لأنفسنا سلطاناً على قلب طباعنا وتحويل جرثومتها الأولى،بل يكفينا أن نثبت اقتدارنا على تعقيم هذه الجرثومة أو على إخصابها،ثم على تربيتها بعد ذلك أو إهمالها.

ومثل ذلك مثل حبتي عنب وحنظل .فإنك لست ببالغ ولو حرصت أن تجعل العنب حنظلاً أو الحنظل عنباً،ولكنك تملك أن تضع إحدى الحبتين أو كلتيهما على صخرة جافة ملساء لا تغذيها تربة ولا يرويها ماء،فلا تعطيك زهراً ولا ثمراً،وتملك أن تضعها في أرض طيبة تؤويها من الأعاصير،وتحميها من الحشرات والطفيليات،ثم تتعهدها بالماء والسماد،حتى تنبت لك النبات الذي تؤهلها له طبيعتها،ثم لا تزال تلاحقها ،تقويماً لأغصانها،وتهذيباً لأشواكها،وتسوية لها طولاً وعرضاً على الشكل والمقدارالذي ترضاه لها.

فكذلك الروح وما فيها من قابليات واستعدادات،وسجايا وجبلات،لا تستطيع أن تبدل عناصرها تبديلاً،ولكنك أهل لأن تتعهد عناصرالخيرفيها:إمداداً بماء العلوم والمعارف،ورفداً بالعمل الصالح،وصقلاً وجلاء،بالندم على السقطات والزلات،وبما شئت من تزكية وتنمية،كما قال الله تعالى:{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)}التوبة:103.و أنت أهل كذلك لأن تدع مرآتها يعلوها صدأ الجهل،وتغشاها عدوى خلطاء السوء،وتتراكم عليها أنقاض العادات الذميمة،كما قال الله تعالى:{ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) }المطففين:14.

وبالجملة فإنما يكون الجهاد الخلقي عبثاً في أحد افتراضين لا ثالث لهما:أن تكون النفس الإنسانية قد خلقت خلقاً كاملاً مستجمعاً لكل أطوارها،أو أن تكون خلقت بتراء جامدة غيرقابلة للكمال.

أما وهي كما قال الغزالي ناقصة بالفعل ولكنها منطوية على إمكانيات الكمال،قابلة بالقوة لما شاء الله من درجات الترقي والتدلي،فقد اتسع ميدان الجهاد أمام كل مجاهد،وذلك كله مما توحي به الآيات القرآنية الكريمة،حيث يقول الله تعالى:{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) }الشمس:7-10.فجعل تسوية النفس من فعل البارئ المصور،ولكنه جعل تزكيتها أو تدسيتها من عمل الإنسان.

وهكذا تسقط المعارضة بشقيها النظري والعملي.

ذلك أننا نتقبل تحديهم لنا بالمقايسة على الخلقة البدنية،ونقول إننا وإن لم نملك أن نغير من طبيعة أبداننا وأن ننشئها خلقاً آخر،فإننا نملك أن نعالجها من أمراضها،وأن نهب شذوذها بتقليم الأظفار،وإزالة ما يغشاها من الشعث والغبار،و أننا نجملها بما نشاء من الزينة الظاهرة،وإن رسالتنا في الجهاد الروحي لا تعدو هذا النمط .وكذلك نقبل الحجة التجريبية ونقول إننا ليس علينا أن نمحو من أنفسنا غريزتي الشهوة والغضب كما زعم المجادل.

كيف وهما أداتنا في الحياة،لاجتلاب نفعها،واستدفاع ضرها؟فمثل غريزة التشهي والتمني كمثل كلب الصيد الذي تبعثه في طلب رزقك.ومثل غريزة الألم والغضب كمثل كلب الحراسة الذي تدفع به اللصوص والمعتدين عن نفسك وحريمك ، فكما أنه ليس من الحكمة والرشد أن تقتل كلبيك،كذلك ليس من الحكمة والرشد أن تقتل غريزتي الغضب والشهوة فيك.

ولكن عليك أن تعلم كلب صيدك ألا يخطف الطير الأليف المملوك ،وأن تعلم كلب حراستك ألا ينبح في وجه الضيفان.وهكذا واجبك أن تنظم سير غرائزك إقداماً أو إحجاماً،على مقتضى قانون الشرع والعقل.وإذا كانت التجربة القاصرة الناقصة قد فشلت في هذه المهمة،فإن التجربة الصابرة المثابرة،التي لا يزيدها الإخفاق إلا معاودة وإلحاحاً وتشبثاً بالمثل العليا،قد أثبتت دائماً نجاحها و انتصارها.تشهد بذلك سير الحكماء والمربين،في أنفسهم وفي تلاميذهم.

5- وبعد فإننا نلاحظ أن في دعوى المعارضة إحاطة وتعميماً،في مقام كان حقه التفصيل والتقسيم.ذلك أن هاهنا فصيلتين من السجايا:

أ- طباعاً قاصرة الأثر على نفسية صاحبها،بمعنى أنها لا تهتف به إلى عمل حميد أو ذميم.

ب- وطباعاً حافزة له على فعل الخير أو الشر.

ولعل أكثر ما جربه المعترضون هو من قبيل الفضيلة الأولى.

فهم إذا قالوا لنا مثلاً:إن المرء قد يولد متفائلاً أو متشائماً،مرحاً أو كئيباً،ألمعي الذهن أو بطيء الإدراك،ذكوراً أو شديد النسيان،متذوقاً للفن أو محروماً من حاسة الجمال،نزاعاً للانطواء،كثير الانزواء،أو ميالاً للخلطة نفوراً من الوحدة،و إنه لا حيلة له في تغيير هذه السجايا،قلنا،وماذا يضيرنا هذا العجز إذا كانت هذه الصفات المتقابلة لا تمنع أصحابها – في أي الطرفين فرضوا- أن يكونوا فضلاء أتقياء،مؤدين لواجباتهم نحو الخالق والمخلوق؟.

فهذه الفضيلة كلها لا صلة لها بقانون الأخلاق،ولا تنقض مذهب الجمهور فيه.

و إنما الذي يتصل بموضوعنا من الطباع الإنسانية هو ما يكون منها ذا نزعة عملية نحو الفضيلة أو الرذيلة .كما لو قيل لنا إن صنفاً من الناس ينشأ منذ طفولته شجاعاً جريئاً مغامراً، وصنفاً آخر ينشأ جباناً متردداً رعديداً، وإن الرجل قد يولد سخياً أو شحيحاً،لين العريكة أو شكساً خشن الجانب،إلى نحو ذلك،وإن كل ضرب من هذه الأخلاق يوحي إلى إرادة صاحبه حتماً تنفيذ مقتضى جبلته.

فنقول:هاهنا أيضاً يجب أن نفصل بين الإيحاء وقبول الإيحاء.فكل عمل الطبيعة والجبلة أنها تدعونا وتلح علينا أن نتخذ اتجاهاً معيناً في سيرنا،ولكن في وسعنا نحن أن نلبي الدعاء،وأن نرفض الرجاء.

وما أحكم التعبير القرآني البليغ حين يقول:{ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) } يوسف:53.فلم يقل:لحاكمة بالسوء أو لملجئة إلى السوء.ولنستمع إلى قوله تعالى حين يحكي محاجة الشيطان لأوليائه وقوله لهم:{ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ(22) }إبراهيم

هكذا حصر كل سلطانه في مجرد الدعوة،وألقى عليهم المسئولية بأنهم هم الذين استجابوا لتلك الدعوة،ذلك أن المسئولية إنما تتقرر في الأعمال الإرادية، والإرادة وإن كانت جهازاً متصلاً بسائر الأجهزة النفسية،إلا أنها في الوقت نفسه منفصلة عنها،وبعبارة أخرى أنها متصلة بها اتصال استشارة واستنارة،وليس اتصال ائتمار وارتباط آلي ولا شبه آلي ،فموقف الإرادة في استقلالها عن العواطف والنزعات، وعن الأفكار والذكريات،وغيرها،مع ارتباطها بها في المجموعة النفسية،كموقف القاضي في استقلاله بالنطق بالحكم.مع ارتباطه بجهاز العدالة كله.من اتهام وشهادة، وحجاج ودفاع،أو كملك له بطانتان تصف له إحداهما الخير وتحببه فيه،وتزين له أخراهما السوء وتغريه به،والأمر في النهاية إليه.

6- وأخيراً فإننا نستطيع أن نتنزل مع هؤلاء الجبريين إلى النهاية،وأن نسلم جدلاً بكل المقدمات التي سبقت مناقشتها:فنسلم لهم أول كل شيء أن الناس ليسوا سواءاً في الجبلة العامة ،وأن الطبيعة تؤهل كل طائفة منهم لناحية معينة من السلوك في الحياة،ثم نسلم لهم أن هذا الميل الطبيعي لا حيلة للمرء في نزعه ومحوه،ولا في تنظيم آثاره،ونسلم أخيراً أن هذا العجز لا يسري على الطباع العادية وحدها،بل على السجايا المتصلة بصميم السلوك الأخلاقي كذلك.

غير أننا نلفت نظرهم بعد هذا كله إلى أنهم،حين يتحدثون عن جمود الطباع واستعصائها،إنما يتحدثون عن ذلك الذي يستنتج بالظن من العادة المستمرة للمرء في سلوكه لا عن الطبع الحقيقي الكامن الدفين،الذي قد تغطيه طبقة سميكة من عوائدنا الشخصية،أو الوراثية،أو السارية إلينا من عدوى المجتمع،حتى أنه ليخفى أمره على الناقد البصير،بل قد يخفى على المرء نفسه كنه نزعاته وميوله،وينخدع في حكمه على استعداداته،إما لقلة عنايته بتحليلها،وإما لفقد الفرص المؤاتية لظهورها،كما يجهل الزوج الذي لم يرزق ولداً قط مبلغ حنان الأبوة ورأفتها،وكما يجهل طالب العلم كنه ميوله الأدبية أو العلمية،في فترة طويلة من سني دراسته،وكما يجهل الجندي مدى قدرته على سياسة الجماعة وتصريف أمورها،لأنه لم يتولى أمر القيادة يوماً ما.

فإذا تغيرت ظروف كل واحد منهم أشرقت فيه صفات وملكات جديدة،وعرف من نفسه ما كان ينكره منها،بل رب كلمة نصح تصادف القلب،ورب حادث مفاجئ يصدم الشعور،فإذا مجرى الحياة كلها قد تغير في طرفة عين،وإذا المعوج يعود مستقيماً،والفاجر العربيد تقياً نقياً.

وجملة القول في هذا الوجه أننا إذا سلمنا أن الرياضة والمعالجة وتقلب وجوه التجارب لا تخلق طبعاً جديداً،فإنها على الأقل تكشف لنا من الطباع الحقيقية ما لم يكن في حسبان أحد وجود جرثومته في النفس.وكفى بهذا فائدةً للتربية والتهذيب.

وهكذا يتبين لنا أن الذي يعتمد على ظواهر السلوك وعلى مجاري العادات في حكمه بعدم تطور الطباع،إنما يعتمد على جرف هارٍ ،وأن مثله كمن يحكم على الصحراء القاحلة الجرداء بأنها لا تقبل الإنبات،دون أن يجرب سقيها وحرثها ومعالجتها بسائر ضروب المعالجة.

فعلة ما يتوهمه الناس من جمود الطباع هو هذا اليأس،وهو فقد الثقة بالنفس،ومفتاح الخير كله في العمل والأمل،واليقظة والجد،والحرص على الإصلاح والتقدم. وتلك هي الوصية الذهبية التي أوصانا بها صاحب الرسالة حين يقول :"احرص على ما ينفعك،واستعن بالله،ولا تعجز"[4].

وتلك هي حقيقة الجهاد الأعظم الذي قال فيه الرسول الكريم-صلى الله عليه وسلم:"المجاهد من جاهد نفسه"[5].

وقد وعد الله الذين يحافظون على عمل الصالحات بأن يصير الصلاح ملكة لهم،فقال:{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)}العنكبوت:9. كما وعد المجاهدين لأنفسهم بإبلاغهم غايتهم من الهداية،فقال جل شأنه:{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69) }العنكبوت: .وهي آية مكية لا تعرف الكفاح بالسيف،ولكن بالصبر والقناعة،وقوة الإرادة،وتحدي المغريات والمثيرات، والصمود أمامها كالصخرة الراسية أمام الرياح العاتية.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن الرجل لا يزال يصدق ويتحرى الصدق حتى يكون صديقاً،ومن أوضح الأحاديث الصحيحة في الدلالة على فضل الجلد والمثابرة و أثرهما في إزالة الرعونات الجبلية ،وتكوين الخلق الحميد المضاد لها،قوله عليه السلام:"و إنه من يستعفف يعفه الله،ومن يستغن يغنه الله،ومن يتصبر يصبره الله"[6]. والله ولي التوفيق.

---

4 - صحيح مسلم كتاب القدر حديث رقم 6716.
5 - سنن الترمذي كتاب فضائل الجهاد حديث رقم 1627
6 - أخرجه الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في الصبر رقم 1031.

المبحث الثاني:علم الأخلاق وتقسيمه إلى نظري وعملي

لقد يكون في وسع الإنسان أن يستغني طول حياته عن بعض مسائل العلم والمعرفة،فلا تخطر له ببال،بل قد يستطيع أن يستغني عنها جميعها فترة طويلة أو قصيرة من عمره....ولكن أحداً لا يستطيع أن يخلي همه من المسألة الأخلاقية طرفة عين.

إنها ضرورة الحياة العملية:عند كل حركة أو سكون،وعند كل نطق أو سكوت،وعند كل هم بفعلٍ أو قول،تلجئ كل واحد منا أن يستفتي نفسه:هل يحسن به أن يقدم أو يحجم،وإنها ضرورة الحياة العملية،تطالب كل واحد منا بالجواب السريع على هذا الاستفتاء،قبل أن يفوت وقت العمل،وتطالبه بأن يكون جوابه مسبباً،ومعتمداً على مبدأ يرضاه قاعدة لسلوكه،ومعياراً لحكمه وتقديره،أخطأ في ذلك أم أصاب،أساء أم أحسن في اختيار القواعد والأسباب.

من هنا مست حاجة كل عاقل إلى أن يكون عنده قانون حاضر يلقنه الجواب الصحيح عند كل استفتاء،ويعصم إرادته عن الخطأ في التوجه والاختيار.ذلك القانون هو علم الأخلاق.

فهو جملة القواعد التي ترسم لنا طريق السلوك الحميد،وتحدد لنا بواعثه وأهدافه.

هذا إجمال له تفصيله:

فكلمة"علم الأخلاق"لفظ مشترك بين نوعين من البحث(أحدهما)بحث عن أنواع الملكات الفاضلة التي يجب علينا التحلي بها، كالإخلاص والصدق، والعفة، والشجاعة،والعدل والوفاء،وأمثالها.ويسمى "علم الأخلاق العملي"وهذا النوع في الحقيقة هو أمس الضربين بالحياة،وأحقهما بأن يكون نبراساً في كل يد،فهو الغذاء اليومي،بل هو الواجب العيني.

ولذلك لا تكاد تخلو أمة في القديم والحديث من معرفته والحث على آدابه التي تصل إليها بالفطرة،أو بالفكر،أو بالتجربة،أو بالوراثة والرواية .

و(الثاني)بحث عن المبادئ الكلية والمعاني الجامعة التي تشتق منها تلك الواجبات الفرعية ،كالبحث عن حقيقة الخير المطلق،وفكرة الفضيلة من حيث هي، وعن مصدر الإيجاب ومنبعه،وعن مقاصد العمل البعيدة،وأهدافه العليا،ونحو ذلك.ويسمى"فلسفة الأخلاق"أو "علم الأخلاق النظري".ولا يطلب من غيرهم إلا كما تطلب النافلة بعد تمام الفريضة.ولذلك لا نجد له من الأقدمية ولا من الشمول ما لعلم الأخلاق العملي.

فالوثائق التاريخية التي وصلت إلينا لا تشير إلى أن قدماء المصريين عرفوا هذا النوع من الفلسفة،إلى جانب الفلسفة النظرية المعروفة في الإلهيات والكونيات.ولعل فلاسفة اليونان هم أول من قسم الفلسفة إلى قسمين(فلسفة نظرية)تبحث عما يجب علمه واعتقاده،و(فلسفة عملية)تبحث عما يجب عمله والتحلي به.

ومعنى كون فلسفة الأخلاق فلسفة عملية أنها تتعلق بالعمل،لا أنها هي من نوع العمل، فإن الفلسفة كلها بحوث نظرية وإن اختلفت مادتها وموضوعها.فإذا تعلقت بالحق الذي يعتقد،كانت نظرية في أداتها،وفي موضوعهما معاً،وإذا تعلقت بالخير الذي يفعل ،كانت نظرية في أداتها،عملية في موضوعها ؛بل علم الأخلاق العملي نفسه هو أيضاً من قبيل النظر لا العمل،وإن كان العمل مادته كما هو مادة العلم النظري،مع الفارق الوحيد بينهما وهو:أن العمل الذي هو موضوع العلم العملي أنواع من الأفعال لها مثال في الخارج،كالصدق والعدل ونحوهما،بينما موضوع العلم النظري هو جنس العمل المطلق،وفكرته المجردة،التي لا يتحقق مسماها خارجاً إلا في ضمن الأنواع التي بحث عنها العلم العملي.

تلك الأنواع التي تعد من قبيل الوسائل لتحقيق الخير المطلق أو الفضيلة الكلية التي يبحث عنها العلم النظري.

وهكذا يمكن اعتبار القسم العملي"فنا"أي علماً تطبيقياً،بالنسبة للقسم النظري، ويمكن اعتباره في الوقت نفسه"علماً نظرياً"،بالقياس إلى ضروب التخلق وأساليب السلوك،التي هي التطبيق الفعلي الحقيقي لقواعد ذلك العلم.

ومن تأمل ضروب الواجبات الأخلاقية وكثرتها وتزاحمها على الأوقات،وشدة الحاجة في تطبيقها إلى دقة في الفهم،وسلامة في الذوق،وحكمة في السياسة،للتوفيق بين مختلف المطالب الحيوية الاجتماعية والروحية وغيرها،على نسب فد تختلف باختلاف الظروف والملابسات،أدرك أن السلوك الأخلاقي جدير بأن يعد فناً من أرقى الفنون الجميلة،لمن عرف كيف يؤلف من حياته اليومية صفحة منسقة كاملة،على منهاج قول الرسول-صلى الله عليه وسلم-ذي الخلق العظيم:"إن لربك عليك حقاً،وإن لنفسك عليك حقاً،وإن لأهلك عليك حقاً،وإن لزوجك عليك حقاً،فأعط كل ذي حق حقه"[7].

---

7 - *صحيح مسلم كتاب الصوم باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به 281/7.*

المبحث الثالث:الاعتراضات على علم الأخلاق النظري،ومناقشتها

في القرن الماضي(التاسع عشر الميلادي)ظهرت في فرنسا مدرسة فلسفية جديدة،أسمت نفسها "المدرسة الاجتماعية"،مهد لها(أوجست كونت)لفلسفته الو اقعية،وكان من أكبر دعاتها(إميل دور كايم)و(ليسيان ليفي بريل)،اللذان حاولا هدم النظريات القديمة في الدين، والفلسفة، والمنطق، والأخلاق، قائلين إنها لا تهبط من السماء،ولا تنبع من عقلية الفرد؛بل هي وليدة العقل المشترك،الذي هو ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية.

ولنقصر بحثنا هنا على الحملات التي وجهتها هذه المدرسة إلى علم الأخلاق،فقد ذهب (ليفي بريل)في كتابه الذي وضعه في أول هذا القرن(العشرين)تحت عنوان"الأخلاق وعلم الآداب العرفية"إلى أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد علم نظري للأخلاق،و أيد دعواه بأربعة أوجه،نوجزها فيما يلي:

1-إن فكرة "فلسفة عملية"هي ذاتها فكرة متناقضة.

2- أنها على فرض إمكانها فإنها عبث ليس له جدوى.

3،4-أنها مبنية على فرضين غير مسلمين(أحدهما)أن الفطرة الإنسانية واحدة في الناس جميعاً لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة،(الثاني)أن الوجدان الخلقي وحده لا تتنازعها العوامل المتباينة،وأن الواجبات الأخلاقية مجموعة متماسكة لا تنافر فيها ولا تعارض.

وسنرى عند بسط هذه الاعتراضات أنها وإن كانت تتجه في شطرها الأول إلى إبطال القسم النظري وحده،إلا أن مهمة هذه الفلسفة محو كلمة الوجوب من معاجم الأخلاق كلية،بحجة أن السؤال "عما يجب أن يكون"لا محل له في العلوم،وأن مطلب العلم إنما هو البحث "عما هو كائن"فالذي تطلب دراسته في الأخلاق هو"ماذا يفعل المجتمع في الو اقع؟وماذا يترك؟".

وهكذا يريدون أن يصبح علم الأخلاق فرعاً من فروع علم الاجتماع،يسمى علم الآداب العرفية،أو علم الاجتماع الأخلاقي،وتقتصر مهمته على وصف سلوك الناس وأخلاقهم على ما هي عليه لا كما يجب أن تكون.فلنعد إلى بسط الاعتراضات الأربعة ومناقشتها:

تقرير الاعتراض الأول،هو التناقض في فكرة الفلسفة العملية:

بيان ذلك أن من طبيعة الفلسفة أو العلم النظري أنها تبحث عن الحقائق وتكشفها على ما هي عليه في الو اقع ،فلا بد من وجود معلوم في الو اقع يكشفه هذا العلم ؛ولكن قضية كونها عملية،أي تشريعية آمرة ملزمة،لأنها تطالب بتحصيل شيء يجب أن يكون ليس و اقعاً بالفعل،لأن الأمر بالشيء إنما يكون قبل وقوعه،لا بعد وقوعه،ولا في حال وقوعه.

وهكذا يكون موضوع هذه الفلسفة موصوفاً بوصفتين متناقضين أنه و اقع وأنه ليس بو اقع،ويكون الحكم الواحد في هذا العلم يمت إلى فصيلتين متباينتين أيضاً،لأنه باعتبار أنه وصف لموجود،يكون حكماً وقوعياً،وباعتبار أنه طلب لما ليس بموجود،هو حكم قيمي مثالي،فيكون وقوعياً مثالياً معاً،أو إخبارياً إنشائياً في آن واحد،من جهة واحدة،أي من جهة حقيقته ومعناه،وهذا بين البطلان،ولا يقال إن هاهنا حكمين منفصلين:أحدهما وصفي وقوعي،والآخر تشريعي قيمي،والثاني منهما تابع للأول ونتيجة له،لأن هذه محاولة محال،فإن الو اقعية لا تلد مثالية أبداً،والخبر لا ينتج إنشاءً أبداً .هذا هو تصوير الاعتراض .

ولكنا لو تأملنا ملياً لاكتشفنا ما فيه من المغالطات الخفية،فإن كلمة "الو اقع"في تعريفنا الفلسفة بأنها"البحث عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الو اقع"لا تعني الو اقع في الزمن الحاضر،بل في الحقيقة ونفس الأمر،سواءاً أكان وقوعه في الماضي أو في الحال أو الاستقبال،فتشمل ما كان وما هو كائن وما سيكون، وتشمل النهائي واللانهائي،بل تشمل المعدوم الذي لا يرى ضوء الوجود،وتشمل من المعدومات الممكن والمحال،وتتخطى المباني إلى المعاني،وتتجاوز المحسات إلى المجردات.

وبالجملة فإن التأمل الفلسفي يتناول كل ما يتعلق به الفكر ويخطر بالبال،لمعرفة الحق فيه،بل يتناول الفكر نفسه وحدود عمله ومنهاج سيره،وما فيه من مبادئ ثابتة أو متحولة،وما يتطلع إليه من قيم عالية أو نازلة.فلا عجب إذاً أن يكون للأخلاق فلسفة،كما للعقائد فلسفة.

ألا وإن الفلسفة في كل شأن تتناوله ترد الفروع فيه إلى أصولها الأولى وقواعدها العامة،وتزن كل طائفة من المعاني بميزانها اللائق بها،فتزن الأحكام والأوامر الأخلاقية بميزان العدل والقسط،طبقاً لمنطق القضايا الإنشائية،كما تزن العقائد والقضايا الإخبارية بميزان الحق والصدق،الذي يقتضيه وضعها العقلي.

وهكذا يتبين بجلاء أن فلسفة الأخلاق فلسفة وصفية تصويرية،كاشفة لأصول القيم الأخلاقية، ولكنها بتقرير هذه الأصول وإرسائها تبعث في النفس إيماناً بعدالة تلك القيم،و اقتناعاً بأنها تستند إلى

حقائق ثابتة،وتنتسب إلى مقدسات سامية.ومن شأن هذا الإيمان بدوره أن يوحي إلى النفس أمراً علوياً بوجوب تحقيق تلك القيم الكبرى.

فها هنا إذاً حكمان منفصلان لا اختلاط بينهما،ولا التباس في أمرهما،وإن أولهما يستتبع ثانيهما حقاً،لكنه لا يستتبعه استتباع المقدمات القياسية لنتائجها المنطوية فيها،حتى يقال إن الخبر لا ينتج إنشاء،بل استتباع الأسباب لمسبباتها، والوسائل لمقاصدها،فإن معرفة مبررات القانون،والاقتناع بعدالته يجذب النفوس إلى امتثاله،ويغريها بطاعته عن محبة وطواعية.

تقرير الاعتراض الثاني،وهو أن بحوث الأخلاق النظرية جهود ضائعة

ذلك أنه كان المنتظر عند الاختلاف في المبادئ النظرية العامة،أن يستنبط من كل مبدأ قواعد عملية تناسبه،مخالفة للقواعد الأخرى،غير أننا إذا استقرأنا الفلسفات الأخلاقية على تنوعها وتنازعها نراها تتلاقى عند قواعد عملية متشابهة بل متماثلة.

حتى إن أنصار المذهب النفعي ينادون كغيرهم بمبدأ "أحب عدوك كما تحب أخالك،وأحب أخاك كما تحب نفسك"و أنصار المذهب الحيوي التطوري يو افقون على الواجبين على التزمت الصارم الذي لا قيد فيه ولا استثناء.

وهكذا نرى القواعد التطبيقية تسير مستقلة تمام الاستقلال عن المبادئ النظرية،ويا ليت أمر الفلسفة الأخلاقية وقف عند حد خلوها عن النتائج العملية، وبقيت لها فائدة نظرية تمس عقائد المجتمع وآراءه،ولكننا بينما نرى الفلسفات العملية والفلسفات الدينية تترك أثرها في المجتمع، وتلاقي من رجال الأديان حركة قوية في تأييدها أو معارضتها،نرى هذه النظريات الأخلاقية تسير على حافة الحياة لا يحس بها أحد،بل يحدث التطور في آداب المجتمع بعيداً عن التأثر بها إطلاقاً،وهكذا نراها عاطلة عن كل فائدة تشريعية أو اجتماعية.

ونحن نجيب عن هذا الاعتراض بشقيه فنقول:أما دعوى اتفاق أصحاب النظريات الأخلاقية كلهم على قواعد عملية واحدة فهي دعوى غير صحيحة،فهناك مثلاً مذهب القوة الذي يتنكر لكل القواعد الأخلاقية المعروفة،ويرى أنها ما وضعت إلا لاستغلال الضعفاء والسيطرة على الجماهير،وأن القوة هي التي تجعل الحق حقاً والباطل باطلاً.

وهناك مذهب المتعة والمسرة الذي يوصي باغتنام اللحظة الحاضرة،و اقتناص مشتهياتها،دون حساب للماضي ولا للمستقبل...نعم يبقى السؤال عن الفائدة في دراسة المذاهب الأخرى،المختلفة في نظرياتها،المتحدة في تطبيقاتها.

وجوابه:أن تضافر النظريات المختلفة على قاعدة واحدة،كترادف الأدلة المتنوعة على الدعوى،فهي بمثابة التحريض بمختلف الوسائل على العمل بتلك القواعد،كأنها تقول لنا:من كان همه طلب الكمال الإنساني لذاته فعليه بالتحلي بالفضائل،ومن كان همه المتعة الروحية الحقيقية فعليه بالتحلي بالفضائل،ومن كان همه المصلحة للفرد أو الجماعة فعليه بالتحلي بالفضائل وهكذا...

وأما قولهم إن قافلة الحياة الاجتماعية تسير غير بالية باختلاف الفلاسفة في المبادئ العليا للأخلاق،فنقول إن المجتمع طبقتان:طبقة العامة والجماهير،ذوي الحياة الكادحة،الذين ليس لهم من الفراغ ما يتلفتون فيه نحو هذا النور،وطبقة الخاصة المثقفين،الذين لا يكتفون بمعرفة الطرق العملية،حتى يضموا إليها براهينها النظرية،ومبادئها الكلية،ولكل طائفة من هؤلاء المثقفين مشرب في الاستدلال،وغرض يسعى إليه في الحياة،فهؤلاء بعينهم أشد العناية أن يستعرضوا هذه النظريات،ليختار كل منها أقربها لاقتناعه،أو يتزودوا من جملتها ويتسلحوا بمختلف أسلحتها،للانتصار على مذاهب الهدم ونزعات التشكيك في حقيقة القانون الأخلاقي.

بسط الاعتراض الثالث:

إن جميع النظريات الأخلاقية تدعي وجود قانون عام للإنسانية كلها،ووجود قانون عام كهذا يفترض وجود طبيعة إنسانية متشابهة،لا تختلف باختلاف الأمم والمدنيات،ولا باختلاف الأقطار والعصور،لكن الو اقع أن هذه الفطرة الواحدة لا وجود لها،ذلك أن الناس صنفان:بدائيون ومتحضرون.

فأما البدائيون فلا محل في عقولهم لفكرة القانون الأخلاقي ،لأنهم لا يعرفون سوى الفوضى المطلقة التي لا رادع فيها من ضميرولا قانون.

وأما المتحضرون فإنهم وإن عرفوا فكرة القانون،إلا أنهم يعرفونها في صور متناقضة:فالأخلاق في الشرق غير الأخلاق في الغرب،والأخلاق عند الأمم القديمة غيرها عند الأمم الحديثة: الخير هنا شر هناك،والعدل هناك ظلم هاهنا.

هذه الحجة قديمة،كان يروجها سوفسطائية اليونان،ثم تجددت في عصر النهضة الأوربية بقلم بعض مشاهير كتابها،أمثال(مونتيني)و(باسكال)ثم انتحلتها هذه المدرسة الاجتماعية،وتوسعت في سرد شواهدها نقلا عن الرحالة والسائحين القدامى والمحدثين.

ونحن لا نطيل النقاش في قيمة هذه المصادروضعف الثقة العلمية بها،لكثرة تناقضها،وقلة تحري كتابتها،وضعف خبرتهم بالناحية الأخلاقية،ولأن ولوعهم بالغرائب إرضاءً لشهوة قرائهم يدفعهم إلى ترك معالم التشابه والاتحاد بين الأمم،وتتبع صميم المفارقات والشواذ منها لعرضها في صورة قواعد عامة،ولكننا نكتفي بأن نقول في صميم الموضوع:إن ما نسبوه إلى الجماعات البدائية من خلوها من كل قاعدة للسلوك هوعلى طرف النقيض من الواقع الذي تضافرت عليه كل الدلائل،وهوأن هذه الجماعات تبالغ في تشددها وتضييقها في أسلوب الحياة والمعاملات إلى حد التزمت أوالخرافة .

وإن ما نسبوه إلى المتحضرين في الصين مثلاً،من رمي الأمهات أطفالهن إلى الحيوانات المفترسة تخلصاً منهم-إن ثبت- فإنما يحدث في أوقات الضرورات القصوى، التي تبيح كل محظور،حتى في أرقى المدنيات،وليس من المعقول أن تكون عاطفة الأمومة في الإنسان أشد قسوة وتحجراً منها في الحيوان،الذي قال في شأنه الرسول-صلى الله عليه وسلم-:"جعل الله الرحمة مائة جزء،فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً،و أنزل في الأرض جزءاً واحداً،فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق،حتى إن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه"[8].

على أنه ينبغي لنا عند اقتباس الشواهد الأخلاقية أن نفصل بين أعمال الناس وأحكامهم،فالذي يدل على خلو النفوس من قانون أخلاقي ليس وقوع الظلم،ولكن استساغة الضمائرله وعدم استنكارها إياه،أما مجرد وقوعه فمعناه أن القانون لم يطبق ولم ينفذ.

أرأيت لو أن رجلاً أوربياً جاء إلى بلاد الإسلام في عصرنا هذا،فأخذ يستقي قانون الإسلام وتعاليمه من واقع سيرة أهلها،أيكون حكمه صحيحاً؟ فالذي يأتي المحرم عالماً بحرمته شاعراً بتأنيب ضميره لا يقال إنه لا يعرف لأخلاق قانوناً،ولكنه يعرفه ويخالفه.

نعم لو وجدنا في أمة قانوناً يبيح لها القتل والسرقة مثلاً فأصبحا أمرين مستباحين عندها بلا استهجان ولا نكير من ضميرها،إذا لساغ لنا أن نقول بفقد قانون الأخلاق عندها،وما يذكر عن قدماء الرومان من أن رب الأسرة كان له حق الموت والحياة على زوجه وأولاده ،يقتل من يشاء ويستحي من يشاء،لا

---

8 - صحيح البخاري كتاب الأدب باب جعل الله الرحمة مائة جزء رقم 6000

نستطيع أن نفهمه على معنى أن قلوب الآباء في هذه الأمة كانت مجردة من الر أفة على أهليهم،ولكن على معنى أن القانون خول لرب الأسرة فيها سلطة القاضي في العقاب والتأديب لمن يستحق.

وكذلك ما يقال عن قانون إسبارطة،من أنه كان يبيح الاختلاس والنهب في بعض المواسم،نفهمه على أن ذلك كان نوعاً من اللهو أو التدريب على أساليبهم في الغزوات والحروب عن تراضٍ منهم...

وبعد فإننا حين ندعي أن حاسة التمييز بين الخير والشر مودعةٌ في كل ضمير،حتى في ضمائر الأشرار والمجرمين،كما قال الله تعالى:{ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15) }القيامة .وكما قال:{ونفس وما سواها*فألهمها فجورها وتقواها} وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) }الشمس7، 8.

لا نزعم عصمة العقول والضمائر من الخطأ في تحديد الحسن والقبيح والخير والشر،ولو في بعض الأحيان.ولكننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن هذه الأخطاء إنما تكون حيث يجتمع في الفعل الواحد جهتا خير وشر،فتختلف الأنظار في ترجيح أيهما،أو حيث تكون الإصابة في الحكم بحاجة إلى شيء من التروي البعيد عن الهوى،أو حيث تنطمس معالم الصواب في بعض الشؤون ويخفى طريقه،حتى تعجز العقول عن الاهتداء إليه ما لم يمدها نور من الوحي السماوي،ومن أجل ذلك أرسلت الرسل،و أنزلت الكتب،إيضاحاً لمعالم الحق وتكميلاً لمكارم الأخلاق.

شرح الاعتراض الر ابع :

قالوا إن وجود قانون عام للأخلاق لا يفترض وجود طبيعة إنسانية عامة متشابهة في الجماعات والمدنيات فحسب،بل إنه يستلزم قبل كل شيء أن يكون هذا القانون نفسه مؤلفاً من واجبات متساندة متعانقة لا تناقض بينها،وأن يكون الوجدان الأخلاقي الذي ينبع منه هذا القانون مؤلفاً هو أيضاً من عناصر مؤتلفة غير متضاربة...لكن كلا اللازمين باطل،فالقانون الأخلاقي مجموعة متنافرة من الواجبات الفردية والأسرية والمهنية والوطنية والإنسانية،والحياة نفسها مجموعة متعارضة من المطالب البدنية والعقلية والسياسية والدينية ،بل الوجدان الخلقي عند كل واحد منا هو مجموعة أحكام متناقضة:بعضها من محاكاة البيئة،وبعضها موروث من عصور متفاوتة:دينية أو قومية أو أجنبية.

هذا هو الاعتراض الر ابع والأخير.

ونحن لا نشغل أنفسنا بمنع ما يحويه من مقدمات،ولكننا نسلم جدلاً وجود تلك المفارقات في أحكامنا،وتلك المعارضات في واجباتنا.ونجيب بأن الفيلسوف،في استنباطه للقانون الأخلاقي العام،لا يستفتي هذه الوجدانات الفردية المعقدة المتناقضة ،بل إنه يسمو عن الجزئيات إلى المجردات،ويرجع إلى طبيعة الإنسان من حيث هي، ليعرف مقتضياتها وحقوقها العامة.

ومتى استنبط لها هذا القانون الكلي أصبح هذا القانون بحيث يفرض نفسه فرضاً على الوجدانات الفردية،وكان عليها أن تسمو هي إليه،لا أن ينزل هو إليها...وإذا كانت الواجبات قد تتزاحم وتتنافس،فالأصل أن يبذل كل امرئ جهده في طلب التوفيق بينهما،لإعطاء كل ذي حق حقه،فإن بلغ التزاحم فيها مبلغ التعارض،كان من تمام مهمة المشرع أن يضع لكل واجب رتبته تقديماً أو تأخيراً،زيادة أو نقصاً،ليبدأ العامل بالأهم قبل المهم،وبالمهم قبل غير المهم،فيجعل الضروري قبل الحاجي،والحاجي قبل الكمالي،ويضحى بالأدنى في سبيل المحافظة على الأعلى،وهكذا يستقيم الأمر جملة وتفصيلاً،تشريعاً وتنفيذاً.

المبحث الر ابع:الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية.

اشتهر عند الباحثين من علماء الغرب أن قو انين الأخلاق الفلسفية تختلف اختلافاً بيناً عن قو انين الأخلاق الدينية،وأن هذا الاختلاف بينهما يبدو من وجوه شتى:من حيث موضوعهما(أي نوع العلاقات التي ينظمها كل منهما)ومن حيث الواضع لهما(أي السلطة التي يصدر عنها الأمر الأخلاقي)ومن حيث أساس التشريع(أي الأسباب التي يستند إليها)ومن حيث بواعث العمل وأهدافه وجزاءاته المقررة في كل منهما، وإليك تفصيل هذه الخصائص التي ميزوا بها الطابع الأخلاقي في الأديان،عن الطابع الأخلاقي عند الفلاسفة:

4- من حيث الموضوع:

فالأخلاق الدينية في نظرهم مهمتها تنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق،ولا شأن لها بأمور المعاملات الإنسانية،بينما الأخلاق الفلسفية ترسم الطريق لسلوك الإنسان في نفسه أو في المجتمع،ولا شأن لها بنظام الشعائر والعبادات،لا بمعنى أنها تقف منها دائماً موقف الحياد فحسب،أو أنها تتلقاها مسلمة من يد العرف الجاري في كل ملة،بل إنها قد تنكرها إنكاراً،كما زعم الفيلسوف الألماني(كانت)حين قال :إنه ليس على الناس واجباتٌ قط نحو خالقهم،لأنه ليس لهم حق قبله،وكل واجب لا محالة يقابله حق[9]. وهكذا ينفصل موضوع الأخلاق الدينية والأخلاق الفلسفية انفصالاً تاماً.

5- من حيث واضع القانون ومستنده.

مهما تتنوع المذاهب الفلسفية في مصدر الإلزام الأدبي:أهو العقل،أم الوجدان الخلقي،أم ضرورة الحياة في المجتمع،أم غير ذلك،فإنها كلها تلتقي عند كلمة واحدة،وهي أنه مصدر إنساني،وأن مستنده في التشريع اعتبارات إنسانية تبرر حكمه لدى العقل أو العاطفة.

أما الإلزام في الدين فيقولون إن مصدره إلهي صرف ،وإن مستنده هو محض تلك الإرادة العليا وقضاؤها المبرم،الذي لا يعنيه رضيت النفس أم كرهت،اقتنع العقل أم أبى.

6- من حيث بواعث العمل وأهدافه وأجزيته:

---

9 - بعد تسليم هذه المقدمة،يبقى النظر في المقدمة الأولى،ومن عرف وجهة النظر الإسلامية فيها يتبين له سقوطها،فالإسلام يقرر أن للعباد حقاً على الله كتبه على نفسه إذا عبدوه لا يشركون به شيئاً،وهو أن يدخلهم الجنة،كما في الحديث الصحيح،ومصداقه في القرآن الكريم :{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة}التوبة:111.{كان على ربك وعداً مسئولاً}الفرقان:16.وقد زعم (كانت) أيضاً أنه ليس على الناس واجبات نحو الكائنات الدنيا،لهذا السبب نفسه،وهو عدم تبادل الحقوق بينهما،وهو أيضاً خلاف التعاليم الإسلامية التي تقرر على المؤمن واجبات من الرحمة والعناية بالحيوان،وواجبات من الرفق والإصلاح في كل شيء يقع في قبضة الإنسان،جزءاً لحق التسخير إلي خوله الله للناس على سائر الكائنات.

قالوا:وتنفصل النظرة الدينية عن النظرة الفلسفية من هذه النواحي أيضاً،ذلك أن الشرائع الدينية تضع لمن يمتثل أمرها أويعصيه جزاءً أخروياً:مثوبة أوعقوبة،وتتخذ الترغيب في الفضيلة وللتحذير من الرذيلة وسائل ،تستمدها من معدن تلك الأجزية ،جاعلة الهدف الوحيد للعامل هونيل الثواب والنجاة من العقاب،وباعثه الوحيد على العمل هو الخوف أو الرجاء،وهكذا تصبح الاستقامة الخلقية عملاً حسابياً لموازنة الربح والخسارة،وليست عملاً بريئاً من الأغراض،مجردا عن الغايات النفعية .

بينما قانون الأخلاق الفلسفية لا يفترض جنة ولا ناراً ولا حياةً بعد الموت،بل لا يلوح بجزاء للفضيلة سوى نتيجتها الطبيعية،من رضي العامل وطمأنينته،وشعوره باستكمال إنسانيته،وارتياح ضميره بأداء الواجب،وإن لوح بشيء وراء ذلك:تحقيق المصالح الإنسانية التي يثمرها العمل،أوالفوائد الاجتماعية التي تعود على العامل،كحسن السمعة وطيب الذكر،فإنما هي أجزية أدبية عاجلة في هذه الحياة.

فلننظر في قيمة هذه الفوارق،ومدى انطباقها على وجهة النظر الإسلامية في الأخلاق:

1- أما إن موضوع الأخلاق في الديانات ينحصر في مادة العبادة والشؤون الإلهية،فهذه الخاصة إن صحت في دين ما فما أبعدها عن أن تكون طابعاً لقانون الأخلاق في الإسلام،لا نكتفي بأن نقول إن هذا القانون لم يدع للنشاط الإنساني،في ناحيته الفردية والاجتماعية،مجالاً حيوياً أو فكرياً أو أدبياً أو روحياً،إلا رسم له منهجاً للسلوك وفق قاعدة معينة،بل نقول إنه تخطى علاقة الإنسان بنفسه،وعلاقته ببني جنسه،فشمل علاقته بالكون في جملته وتفصيله،ووضع لذلك كله ما شاء الله من الآداب المرضية والتعاليم السياسية، وهكذا جمع ما فرقه الناس باسم الدين وباسم الفلسفة،ثم كان له عليهما المزيد .

2- وكذلك يرى الناظر في أسلوب الدعوة الأخلاقية في الإسلام،أنها منزهة عن ذلك الطابع التعبدي التحكمي الذي زعموه في الأخلاق الدينية،وأنها على العكس من ذلك تعتمد دائماً على الحكم المعقولة المقبولة ،مخاطباً الإدراك السليم،والوجدان النبيل،بالأسباب المقنعة التي تبرر أمرها بما تأمر به ،ونهيا عما تنهي عنه،تفصيلاً في ذلك تارة،وإجمالاً فيه تارة أخرى.

اقرأ إن شئت في الأسلوب التفصيلي أمثال الآيات الكريمة:{ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا }البقرة:282.و{ وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِوَلَذِكْرُاللَّهِ أَكْبَرُوَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) }العنكبوت:45.{ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) }فصلت:34.{ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) }الحجرات.6.{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ (10) }الحجرات.10.{ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) }الحجرات:12.وفي الأسلوب الإجمالي:{ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58) }النساء: .{ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) }الجمعة:9....

حتى إنه في المواضع التي يذكر فيها الأمر مجرداً عن كل تعليل،نرى النص يشفع ذلك الأمر بما يبين أنه ليس أمراً تعنتياً عن كل تعليل، نرى النص يشفع ذلك الأمر بما يبين أنه ليس أمراً تعنتياً تفرض طاعته لمجرد أن صاحبه ذو سلطان قاهر واجب الطاعة،بل لأن هذا الأمر ذو علم واسع،وحكمة بالغة،فلا يأمر إلا بما يصلح البشرية ويهديها سواء السبيل:{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216) }البقرة:216.{ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11) }النساء: .بل هاهنا ما هو أعظم من ذلك خطراً!

يفخر الحكماء بأنهم اكتشفوا للإلزام الأدبي مصدراً آخر غير الوحي السماوي،ذلك هو النور العقلي،أو الإحساس الأخلاقي،الذي ينطوي عليه كل قلب إنساني ألا فليعلموا أنهم لم يأتوا بجديد غريب عن الإسلام.

فالقانون الإسلامي في رجوعه إلى العقل السليم والوجدان النبيل،يرجع إليهما لا باعتبار أنهما شهيدان له فحسب،يؤيدان حكمه ويشفعان له عند المخاطبين .كما بينا آنفاً ،بل إنه يقلدهما مقاليد الحكم،ويخولهما حق الأمر والنهي،في أطوار ثلاثة:قبل ورود الشرع،وفي أثناء نزول الشرع،وبعد انتهائه وتمامه أما قبل الشرع فإن القرآن يقرر في أصرح عبارة أن النفوس كلها قد منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخير والشر،والعدل والظلم،والتقوى والفجور:{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) }الشمس:7- 8.{ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15) }القيامة:14-15.

ثم لا يكتفي بأن يجعل هذه البصيرة قوة كاشفة معرفة،بل يجعلها آمرة ناهية،وينعي على من يخالفها بأنه من أهل الضلال والطغيان:{ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) }الطور هذه القضية المنفصلة لا تدع مجالاً للشك في وجوب الخضوع لأوامر الأحلام والعقول متى اتضح أمامها طريق الحق والخير،وكذلك يقول صاحب الرسالة الباهرة صلوات الله وسلامه عليه:"إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه".

وبعد فما لي أراك ها هنا في شيء من الدهشة والاضطراب،كأنك تخشى أن نكون في هذه القضية قد أقدمنا على أمر خطير؟ لعلك سمعت بعض أهل العلم يقولون إن تحكيم العقول في حسن الأفعال وقبحها إنما هو مقالة أهل الاعتزال،وإن أهل السنة لا يرون للأفعال في نفسها حسناً أو قبحا،و إنما الحسن ما أمر به الشرع، والقبيح ما نهى عنه الشرع!.

ألا فاعلم أنه ليس في الدنيا عاقل:أشعري ولا معتزلي ولا غيرهما،ينكر ما منحه الله للإنسان من ملكة التمييز بين الأفعال،والحكم عليها بالحسن أو القبح،بمعنى أن بعضها يعد صفة كمال،وبعضها يعد صفة نقص،أو أن بعضها يقبله الطبع المستقيم، وبعضها يمجه الذوق السليم،أو أن بعضها يمدح فاعله،وبعضها يذم مرتكبه...فذلك كله مما لا جدال فيه.

و إنما الجدال الذي سمعت خبره بين الأشاعرة والمعتزلة كان في شأن آخر:وهو أن هذه الأحكام التي تصدرها عقولنا،ونحن نجزم بمطابقتها للو اقع وبأنها هي حكم الله في نفس الأمر؟ وهل نعتقد أن الله كلفنا باتباعها،وسيحاسبنا عليها،ويجزينا بها مثوبة أو عقوبة،من قبل أن يرسل بها رسولاً من عنده،أو ينزل إلينا بها كتاباً نقرؤه؟ أم أننا ينبغي لنا ألا نتخذ أحكاما مرآة صادقة لأحكام الله،ولا نجترئ على القول بأنها مقياس أمره ونهيه،إلا أن يبعث إلينا بسلطان من عنده،يقرنا عليهما،ويلزمنا بقضيتهما؟.

هذا هو محل الخلاف هناك.ولكنه ليس مجال بحثنا هنا.و إنما الذي يعنينا في هذا المقام هو اتفاق الطرفين على أن الإسلام يقرر للعقل سلطاناً أدبياً بالمعنى الإنساني الذي شرحناه آنفاً. وهو المعنى الذي زعم علماء أوربا أنهم اكتشفوه في المذاهب الفلسفية خاصة.هذا السلطان الأدبي الذي يسميه الفلسفة "سلطان الضمير"يعترف الإسلام به على استقلاله وكماله في الفترة التي تسبق قيام الشريعة ووصولها إلى من وجهت إليه،كما بينا.

يبقى البحث في نظرة الإسلام إلى هذا السلطان العقلي،في أثناء نزول الشريعة السماوية وبعد تمامها:هل متى نزلت الشريعة وبلغت أهلها أصبح أمرها ناسخاً لأحكام العقل وأوامره،كما يبطل التيمم بحضور الماء ؟كلا،إن النور لا ينسخ النور،ولكنه (إما) أن يؤكده ويؤيده،(وإما)أن يغذيه ويرفده(وإما)أن يكمله ويزيده.

وتفصيل ذلك أن شؤون الإنسان على ثلاثة أضرب:

(منها)ما للعقل فيه مجال واضح،وحكم حاسم.وهو الأصول التي لا تتعارض فيها الأنظارولا يختلف فيها اثنان،كحسن الصدق النافع،وقبح الكذب الضار،ونبل الإحسان في رد الإساءة ولؤم الإساءة في جزاء الإحسان...فيجيء الشرع في هذه المواضع مقرراً لحكم الفطرة ومؤكداً.

(ومنها) ما للعقل فيه نور ضئيل تغشاه الظلال،وتخالطه الأوهام،وهو مواضع الشبهات العقلية،كالخمر،والربا،والصدق الضار،والكذب النافع،واستبقاء الحياة المعذبة مع اليأس ،والتضحية بها في سبيل الواجب مع القدرة على حفظها..فهنا يجيء الشرع إمدادا لنور العقل،بترجيح جانب الحكمة والرشد فيه،وتصحيح أخطاء الوهم التي تخالطه وتغشاه.

(ومنها)ما لا مدخل للعقول فيه بإطلاق،كتفصيل أنواع العبادات وكيفاتها ومقاديرها...فيكون ورود الوحي بها مكملا لما فات العقل إدراكه،ما حياً للظلمة التي تركها وراء حدوده.وهكذا يكون للفطريين الذين لا يتبعون إلا شريعة العقل،نورٌ وحاد،ويكون لأتباع الشرائع السماوية نوران اثنان،كما قال سبحانه:{ نُورٌ عَلَى نُورٍ} النور:35.ولا تحسبن أن نور الشريعة فيما لم يهتد إليه العقل بمفرده قد أصبح مستغنياً عن نور الفطرة جملة،كلا،فإنه لا يزال في أشد الحاجة إلى رفده وعضده،من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول:أن الشرع لا يزال يستند إليه عند مطالبته للمؤمنين بأداء واجباتهم الشرعية،لا باعتبار أنها أوامر إلهية فحسب،بل باعتبار أنها أصبحت أوامر أخلاقية بعد أن سبق تعهدهم بها تعهداً كلياً عاماً،بمقتضى عقد الإيمان الذي ينطوي على التزام السمع والطاعة،ألا ترى إلى قوله سبحانه:{ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7) } المائدة .وقوله:{ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) }الحديد:8.

الوجه الثاني:أن أوامر الشريعة في معظم شأنها أوامر عامة كلية،يكل الشرع تفصيلها وتحديدها إلى تقدير الوجدان الخلقي،الذي أودعه الله في كل نفس،وفي كل جماعة بشرية.وكثيراً ما يصرح القرآن بتفويض هذا الوجدان الشخصي أو الجماعي في تحديد مقادير الحقوق والواجبات وأساليبها:{ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ } البقرة:282.{رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}البقرة:233.{ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241) }البقرة.

الوجه الثالث:-وهو أعم وأدق-أن الإسلام لا يطلب،ولا يرضى ،أن تنفذ أوامره تنفيذاً آلياً،خضوعا لصولة حكمه،بل لا بد قبل كل شيء أن تسري أوامره إلى أعماق الضمير،حتى يتشربها القلب،ثم تفيض عنه بعد أن تكون قد تحولت فيه إلى أوامر ذاتية انبعاثية...ذلك أن أول خطوة في امتثال الواجب هي الإيمان

بوجوبه وعدالته، والخطوة التي تليها هي أن يحمل هذه الإلزام إلى النفس على كف الضمير، مشفوعاً بصوت منبعث من أعماقه،يناديها:"يا أيتها النفس!إن الله يأمرك أن تفعلي،و أنا آمرك أن تطيعي أمره،فإنه حق وعدل،و إنه لا خيرة لك في رده".

فإن لم ينبعث من الأعماق هذا التبليغ،ولم يرتفع فيها هذا الصوت الداخلي،ترديداً لصدى ذلك الصوت السماوي،كان العمل كله هباءً عند الله وفي نظر قانون الأخلاق .

القلب (أو الضمير)إذاً هو بريد الشرع،الذي لا سبيل إلى الامتثال إلا عن طريقه،وكفى بهذا رفعاً لمكانته في غضون أحكام الشريعة.

وبعد،فإن الشريعة نفسها،بعد أن بينت الحلال الصريح،والحرام الصريح، تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف،ويشتبه فيها الحكم،وفوض لكل امرئ أن يستفتي فيها قلبها،ويتحرى فيها طمأنينة نفسه،أخذاً بالأحوط والأسلم.

هكذا قضى الرسول الحكيم صلى الله عليه وسلم- حيث يقول:"الحلال بين والحرام بين.وبينهما أمورٌمشتبهات لا يعلمها كثيرمن الناس.فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه"[10] . ويقول:"استفت قلبك واستفت نفسك،البر ما اطمأنت إليه النفس،واطمأن إليه القلب،والإثم ما حاك في النفس،وتردد في الصدر،وإن أفتاك الناس و أفتوك"[11].

وأخيراً:فإن سلطان الضمير في نظر الإسلام لا يقف عند هذا الحد،ولا ينتهي بانتهاء هذه الحياة،بل إن له دوراً هاماً عند المحاسبة في دار الجزاء،حيث يتقدم بين يدي فصل القضاء ،ويصدر حكمه على صاحبه قبل أن يصدر عليه الحكم الأعلى. اقرأ إن شئت قوله تعالى:" وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) }الإسراء

3- وما الحديث عن الأجزية والبواعث والأهداف،ودعوى اختلاف طبائعها في نظر الدين عن نظائرها في نظر الفلسفة،فإنه إن سلم في بعض الأديان الأخرى فهو أبعد ما يكون عن وجهة النظر الإسلامية،وهو في جملته أكثر انطباقاً على المسيحية منه على اليهودية(إن صحت نسبة كتبهما المعروفة إليهما).فقد كان الترغيب والترهيب في التوراة بوعود و إيعادات كلها عاجلة في هذه الدنيا،وتكاد تستأثر بها

---

10 - صحيح البخاري كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه 20/1
11 - مسند أحمد 182/4، 228.

النزعة المادية الخالصة:الصحة،والرخاء،وكثرة الأولاد،وهزيمة الأعداء،للمطيعين وأضدادها لأضدادهم.[12]

ثم جاء الإنجيل على العكس من ذلك يحول أنظار معتنقيه من ملك الأرض إلى ملكوت السماء،ويبشر الخيرين بما أعد لهم في الآخرة،من جزاء القرض الحسن بأحسن منه[13] .

أما القرآن فقد نظم هذين الطرفين المتباعدين في سلك واحد:{لنوبئنهم في الدنيا حسنة[14] ولأجر الآخرة أكبر} .ثم لم يكتف بذلك ،بل قام إلى جانب مهمة الجمع والتوفيق،بمهمة البناء والإنشاء والتكميل،فوصف ما للفضيلة من الأجزية والآثار المعنوية الصالحة، روحية، وخلقية،وعقلية،وحسية عاجلة وآجلة،بحيث تتذوق فيه كل نفس طعم الأمنية التي تشتاقها، وتسمع كل أذن نغمة الأنشودة المحببة إليها.اقرأ في الروحيات:{ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ }فاطر:10.{ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) }آلعمران:31.

وفي الأخلاقيات:{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69) }العنكبوت:69.{ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) }محمد:17.

---

12 - هكذا نقرأ في سفر التكوين قول الله لآدم وزوجته:"لا تأكلا من هذه الشجرة،ولا تقرباها،لئلا تموتا"الفقرة3 من الفصل الثالث:، وقوله لابن آدم بعد أن قتل أخاه:" الآن ستلعنك الأرض...فإذا حرثتها فلن تعطيك ثمراتها"(الفقرتان 11، 12 من الفصل الرابع).وقوله لنوح وبنيه بعد الطوفان:"فلتكثروا ولتتناسلوا ولتملئوا الأرض"(الفقرة 1من الفصل 9)وقوله لإبراهيم بعد أن رضي بذبح ولده:"فإذا فعلت ذلك ولم ترفض التضحية بولدك الوحيد،فوعزتي وجلالي،قول الإله الأبدي ،لأباركنك ولكثرن ذريتك حتى تكون كنجوم السماء ورمال السواحل،ولتملكن ذريتك أرض أعدائها"(الفقرتان 16- 17 من الفصل 22). وقول إسحاق لابنه يعقوب (إسرائيل): فليمنحك الله قطر السماء وشحم الأرض،وليرزقك قمحاً وافراً وكروما عظيمة،ولتخضع لك شعوب،ولتسجد أمامك أمم"(الفقرتان 28- 29 من الفصل 27). وقول الله ليعقوب أيضاً:"كن خصباً كثير الأولاد،وليخرج من صلبك امة ، بل أمم. سأعطيك الأرض التي وعدتها إبراهيم وإسحاق وسأعطي هذه الأرض لذريتك "(الفقرتان 11- 12 من الفصل 35) ونقرأ في سفر الخروج قول موسى لقومه:" اعبدوا ربكم الإله الأزلي،وهو يبارك خبزكم وماءكم،ويباعد عنكم العلل والأدواء ، حتى لا يكون في أرضكم امرأة عاقر، ولا تجهض فيها امرأة حامل،وسيبطل أعماركم ،ويبعث الرعب بين يديكم،ويهزم الشعوب التي تصلون إليها"الفقرات 25- 27 من الفصل 23). ونقرأ في سفر اللاويين قول الله لبني إسرائيل في عهد موسى:"إذا اتبعتم أمري، وحفظتم وصيتي ،سأبعث إليكم الأمطار في أوقاتها،فتخرج الأرض ثمرتها،والأشجار فاكهتها، فلا تلبثون إذا فرغتم من حصاد قمحكم واستخراجه من سنابله أن تجنوا كرومكم، ولا تفرغوا من جني الأعناب حتى تبدؤوا البذر،ستأكلون من الخبز حتى تشبعوا،وتسكنون دياركم آمنين،حتى لا يزعج أحد نومكم،وسأباعد عن بلدكم كل حيوان مفترس،ولن يدخل في دياركم سيف،ستتعقبون أعداءكم،حتى يتساقطوا أمام سيوفكم...أما إذا لم تستمعوا لي ولم تنفذوا وصيتي..فإليكم ما سأفعله بكم،سأسلط عليكم الرعب والسل والحمى...عبثاً ستزرعون أرضكم ،لأن أعداءكم سيأكلون ما تزرعون ،وستنهزمون أمامهم ..." (الفقرات 3- 17 من الفصل 26).وهكذا ...وهكذا ...في غير موضع .

13 - هكذا نقرأ في إنجيل متى ومرقص قول عيسى عليه السلام لسائل حديث العهد بالإيمان به:"إذا أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع ما تملك وأعطه للفقراء، وسيكون لك كنز في السماء، ثم تعال واتبعني"(الفقرة 21 من الفصل 10 في إنجيل مرقص،ومن الفصل 19 في إنجيل متى).وفي إنجيل لوقا قول عيسى لتلاميذه:" وأنتم فلا تبحثوا عما تأكلون وما تشربون،ولا تهتموا لذلك ،لأن هذه الأشياء إنما يبحث عنها غير المؤمنين،وإن ربكم (أباكم) يعرف حاجتكم إليها،فلا تبحثوا بالأحرى عن ملكوت السماء،وكل هذه الحاجات ستعطى لكم نافلة...بيعوا ما تملكون واجعلوه صدقات واتخذوا لكم خزانة لا تنفد، وكنزاً لا يفنى في السماء "الفقرات 29 – 34 من الفصل 12).وذلك نرى الوصية عينها تتكر على لسان تلاميذ المسيح، ويؤكدونها في كتبهم ومراسلاتهم .

14 - تأمل في وجازة هذا الأسلوب القاصد النبيل،عند إشارته إلى المتاع الدنيوي،وكيف ترفع عن هذا التفصيل والإطناب في سرد أنواع ..إنه حقاً كلام ملك الملوك.

وفي العقليات:{ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا }الأنفال:29.{ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}الحديد:28.

ومن أجل هذه الأجزية القرآنية نعمة الرضا والارتياح لأداء الواجب،وهي تلك المتعة التي تزعم الفلسفة الاستئثار بها:{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) }الغاشية:8، 9.وفي الحديث الشريف:"من ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن"[15].

هذا ولقد أكثر الجاهلون من المقارنة بين الجنة في الإسلام وفي المسيحية،فوصفوا الأولى بأنها دار طعام وشراب ومتع بدنية مادية خالصة والثانية بأنها دار حياة روحية صافية،ولقد أخطئوا المرمى في كلا الوصفين،فالجنة في القرآن والإنجيل[16] كما يعرف بالرجوع إلى نصوصهما ،دار نعيم بدني وروحي معاً،وحق لها أن تكون كذلك،فهي جزاء للإنسان في جملته،لا في أحد شطريه دون الآخر.على أن القرآن يضيف إلى تقرير الجزاءين بيان التفاوت العظيم بين قيمتهما،جاعلاً المقصود الأهم هو المعنى الروحي منهما،فيقول بعد ذكر المساكن الطيبة في جنات عدن:{ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72) }التوبة:72.

وفي الحق أن هذه الجوائز المادية والمتع البدنية،مثلها كمثل الأوسمة التي يهديها الملوك،ليست قيمتها في صورتها ومادتها،ولكن في دلالتها ومغزاها،ألا وهو هذا التكريم والرضوان الذي أشار إليه القرآن،وقد أشار إلى مثل ذلك في الطرف المقابل،إذ عرفنا أن أعظم ما يخشاه العاقل من عذاب النار ليس

---

15 - مسند أحمد 18/1.

16 - اقرأ مثلا في إنجيل لوقا ،قول عيسى عليه السلام لأصحابه:"من أجل ذلك أعددت لكم مملكة السماء..لكي تأكلوا تشربوا على مائدتي...ولكي تجلسوا على العروش لتقضوا في شأن الإثني عشر سبطا من بني إسرائيل"الفقرتان29، 30.من الفصل 22.وقوله في وصيته لأحد أتباعه :"إذا أعددت مأدبة غداء أو عشاء...فادع إليها بعض الفقراء والعجزة والعمى والمقعدين،وكن مغتبطاً بأنهم لا يقدرون على مكافأتك بمثلها،لأنها سيرد لك مثلها يوم يبعث الصالحون(الفقرات12- 14من الفصل14).واقرأ في إنجيل متى وغيره،قول عيسى لتلاميذه في مأدبة العشاء الأخير:"أقول كم إني لن أشرب بعد اليوم من عصير العنب هذا،حتى يجيء اليوم الذي أشربه معكم من جديد في مملكة ربي (أبي)الفقرة 29من الفصل 26.واقرأ في إنجيل يوحنا:سأعطي الفائزين طعاما من شجرة الحياة التي في جنة الله،سأعطيهم من المن الغيبي وسيلبسون ثيابا بيضاء ،وسيشرب الظامئون من عين ماء الحياة مجاناً،ولن يجوعوا بعدها ولن يظمئوا بعدها أبداً،ولن تصيبهم الشمس ولا الحرور،(الفقرتان-7- 17)من الفصل :2والفقرات 5 من الفصل 3، 6.من الفصل 21.،17 من الفصل 7 من الأمثال الغيبية من إنجيل يوحنا،واقرأ في إنجيل يوحنا أيضاً وصفه للجنة التي يسميها بيت المقدس الجديد:إن المدينة مبنية من الذهب الخالص كأنها القوارير الصافية ،وإن أرضها مفروشة بالأحجار الكريمة من مختلف الأنواع،وإن شجرة الحياة فيها تخرج ثمارها اثني عشر مرة في العام ،في كل شهر مرة ..الخ .الفقرتان 1، 2 من الفصل 22.من الأمثال الغيبية المذكورة.هذه النصوص كان يفهمها المسيحيون الأولون على حقيقتها،ولكنهم أخذوا بعد تأويلها وجعلها ضربا من التمثيل،اتقاء اعتراضات الملاحدة،والعجيب أن علماءهم لا يزالون مع ذلك مجمعين على أن البعث في المعاد بدني وروحي معاً،كما أنهم لايزالون يقررون بأن عذاب النار يتناول الجسم والروح،وفقا لما دلت عليه نصوص الأناجيل، مثل قول المسيح لأصحابه:"لا تخشوا أولئك الذين يهلكون الجسم ولا يستطيعون أن يهلكوا الروح،ولكن خافوا ذلك الذي يقدر أن يهلك الروح والجسم في جهنم"الفقرة27 من الفصل 10 من إنجيل متى). وقوله:"إن الذين يرتكبون الظلم سيقذفون في النار الحامية التي سيكون لهم فيها العويل وصريف الأسنان"(الفقرة 43 من الفصل 13 من إنجيل متى) . ترى أي حجة عقلية أو نقلية جعلتهم هكذا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

هو آلامها الحسية،بل ما لها من دلالة معنوية على الخزي والإهانة:{ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) }آلعمران: هذا هو تحقيق الحق في شأن الأجزية الدينية والفلسفية.

وبعد فإن الناس كثيراً ما يلتبس عليهم الأمربين أجزية العمل وثمراته من جهة،وبين أهداف العامل وغاياته من جهة أخرى،وهكذا يخلطون بين الغاية الفعلية،بمعنى طرف الطريق وآخره،والغاية القصدية،بمعنى نية العامل وهدفه،ظانين أن وضع إحداهما هو وضع للأخرى،حتى كان الإسلام يلوح للمؤمنين أن يقصدوا بأعمالهم تلك النتائج كلها،أو بعضها على التخيير.

كلا إن الأمر ليس كما زعموا،فأنواع الأجزية التي قررها القرآن للفضيلة والرذيلة لا تحصى كثرة، ولكن الهدف الذي وضعه نصب عين العامل هدف واحد لا تعدد فيه ولا تردد:هو وجه الله مخلصاً خالصاً. وهذا كما ترى تعبير روحي عن معنى أداء الواجب لذاته.وهو معنى تجده في القرآن في أكثر من ألف موضع،كلها تحث على الفضيلة لما لها من قيمة ذاتية بغض النظر عن كل آثارها.

على أن تلك الأجزية الكريمة التي وعد الله بها المتقين،إنما وعد بها من كانت غايته من عمله وجه الله وحده،فهو الذي{أتى الله بقلب سليم}وهو الذي {جاء بقلب منيب}،وهو الذي كان عمله{في سبيل الله}،وقد سئل النبي-صلى الله عليه وسلم-عن الجهاد بدافع الحمية،أو لطلب الغنيمة،أو بقصد حسن الذكر،فأومأ إلى أن شيئاً من ذلك ليس في سبيل الله،قائلاً:"من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل"[17].

أما وراء هذه النية من مطامح ومطامع فهو في نظر الإسلام إما رجسٌ وفسوق من عمل الشيطان،كالرياء والسمعة ونحوهما.وغما عبث وضرب من المباح لا قيمة له ولا ثواب،ومن هذا الضرب الأخير أن يكون هدف العامل هو الجنة وما فيها من نعيم .

فلينظر كل امرئ أين يضع نفسه،و أين يوجه قصده؟{ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات} البقرة:148.

---

17 - أخرجه الترمذي كتاب فضائل الجهاد باب فيمن جاء يقاتل رياء أو للدنيا 1652.

المبحث الخامس:علاقة علم الأخلاق بالتربية

"التربية"تفعلة،من ربا يربو،إذا زاد ونما.فهي تعهد الشيء ورعايته بالزيادة والتنمية والتقوية، والأخذ به في طريق النضج والكمال الذي تؤهله له طبيعته.والتربية الإنسانية الكاملة هي التي تتناول قوى الإنسان وملكاته جميعها:

(1)تنمية لجسمه،وحفظاً لصحته،وهذه هي التربية البدنية(2)وتقويماً للسانه وإصلاحاً لبيانه،وهي التربية الأدبية(3)وتثقيفاً لعقله وتسديداً لتفكيره وأحكامه،وهي التربية العقلية(4)وتزويداً به بالمعلومات الصحيحة النافعة،وهي التربية العلمية(5) وترويضاً له على وسائل الكسب لعيشه،وهي التربية المهنية(6)و إيقاظاً لشعوره بجمال الكون،ومعاونةً له على التعبير عن هذا الشعور،وهي التربية الفنية(7)وتعريفاً له بحقوق المجتمع الذي يعيش فيه،وبما فيه من نظم وقوانين،وهي التربية الاجتماعية والوطنية(8)وتوسيعاً لأفق شعوره بالأخوة العالمية،وهي التربية الإنسانية(9)وتوجيها مستمراً لأعماله على سنن الاستقامة،حتى تتكون منها العادات الصالحة والأخلاق الحميدة الراسخة،وهي التربية الخلقية(10)ثم تسامياً بروحه إلى الأفق الأعلى بإطلاق ،وهي التربية الدينية.ولقد يذهب الظن بالناظر في هذا البسط والتقسيم إلى أن "علم الأخلاق"إنما يعني شعبة واحدة من بين هذه الشعب،وهي شعبة "التربية الأخلاقية".

وليس الأمر كما يوحي به هذا الظن،فإن سلطان الأخلاق منبسط على وجوه النشاط الإنساني كلها،لا يشذ عنه عمل تربوي ولا غير تربوي،ولا يتفاوت في حكمه نشاط بدني أو عقلي أو فني أو أدبي أو روحي.

فالفنان الذي يجافي بفنه قانون الحشمة واللياقة ،ويهتك به ستر الحياء والعفاف يتصدى لمقت الضمير الحي،وإن لم تؤاخذه قواعد الفن،والمعلم الذي يختار مادة تدريبه العقلي واللغوي للناشئين من أحاديث الرفث،و أقاويل التحريض على الهجر والإثم،يسيئ من حيث يحس أنه يحسن، والمرشد الديني أو البشر الذي يتوسل في الدعوة إلى دينه بوسائل الخداع والكذب،أو بشئ من الإغواء بالمال أو الجاه أو غيرهما،يرتكب جريمة من أشنع الجرائم.

وهكذا سائر أنواع التربية وشعبها،فإنها وإن اتخذت لها أهدافاً أخرى اشتقت لنفسها منها أسماءً معينة،إلا أنها يجب أن تخضع في وسائلها وأساليبها وبواعثها لقواعد الآداب،وأن تقيس ذلك كله بمقاييس الفضيلة.و إنما تمتاز "التربية الأخلاقية"من بين سائر الشعب بأن هدفها القريب،وغايتها المباشرة،هي

التدريب على السلوك الرشيد،وتكوين الخلق الحميد،فصلة علم الأخلاق بها أقوى و أقرب،فلننظر في كنه هذه الصلة.

وسنرى جانباً منها متفقاً عليه،وجانباً مختلفاً فيه.

فأما القدر الذي لا خلاف فيه فهو أن علم الأخلاق هو أول الوسائل وأولاها بعناية المربين،لأنه هو المصباح الكاشف لمالك الرشد والغي،ولأنه هو المعيار الذي توزن به نو ايا العاملين وبواعثهم،فمن صادف سبيل الهدى مصادفة من غير قصد ولا شعور بإلزام الواجب فيه،كان مثله كمثل الذي يقضي بين الناس خبط عشواء ،وهو جاهل بما يقضي فيه،فلا فضل له غن أصاب،بل هو أحد القاضيين اللذين في النار،كما جاء في نص الحديث الصحيح[18].وأما القضية التي اختلفت فيها مذاهب الفلسفة منذ القدم،فهي أن العلم بالفضيلة هل يكفي في تحصيلها والتحقق بها؟وبتعبير آخر هل علم الأخلاق وسيلة تامة في التربية الخلقية؟.

أجاب(سقراط):أن نعم! فغن من عرف أن الهدف الذي تنزع إليه فطرة الإنسان هو سعادته الحقيقية،وأن الفضيلة هي الطريق الوحيد الموصل إلى ذلك الهدف،لا يمكن أن يخطئ طريقها،ولا يتصور أن يسلك أحد سبيل شقاوته وهو عالم به طائع مختار في عمله،فالأشرار وأراذل الناس لا ذنب لهم إلا جهلهم بحقيقة مقاصدهم،أو جهلهم بتحديد وسائلها،وعلاجهم إنما هو بتصحيح معلوماتهم،لا بتقويض نو اياهم وعز ائمهم،لأنهم لا ينوون إلا خير لأنفسهم،ولكنهم يجهلون هوية هذا الخير،أو يجهلون وسائله،وهكذا قرر مؤسس الفلسفة العملية.

أما تلميذه(أفلاطون):فقد اختلفت عبارته،فقرر في بعض مواضع من كتبه أنه ليس بالعلم وحده يصبح المرء فاضلاً،فإن الرجل قد يعرف الشر ويأتيه،ويعرف الخير ولا يفعله[19]،و إنه لو كانت الفضيلة تنتقل بالتعليم،كما تنتقل العلوم من عقل إلى عقل بالأدلة والبراهين،لاستطاع حكماء أثينا أن يجعلوا تلاميذهم فضلاء مثلهم.

وقال في موضع آخر غن الفضيلة التي لا تحتاج إلى تعليم إنما هي الفضيلة الفطرية الموروثة،التي لا تشعر بنفسها،أما الفضيلة الحقيقية فهي التي تعتمد على معرفة الخير ونيته.

---

18 - قاضيان في النار ،وقاض في الجنة،فالذي في الجنة رجل عرف الحق فقضى به،والذي في النار رجل قضى للناس على جهل،ورجل عرف الحق فقضى بخلافه.

19 - والنصوص القرآنية تؤيد ذلك:{أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم}الجاثية:23، {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها....ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه} الأعراف 175- 176.

ومن تأمل في كلا التقريرين من قول(أفلاطون)لم يجد بينهما اختلافاً،ولم يجد في واحدٍ منهما تأييداً لقول (سقراط):إن العلم بالفضيلة كاف في تحصيلها.

على أن مؤرخي الفلسفة يميلون في تفسير هذه المقالة إلى ما أشار إليه (أفلاطون)من أنه ليس المقصود بالعلم مجرد المعرفة التلقينية،أو الإدراك العقلي الجاف،بل المعرفة التي تمتد من العقل إلى القلب،وتصبح إيماناً عميقاً،وقوة ملهمة متحمسة،قالوا:ولا ريب أن هذا الضرب من العلم كاف في نجاح التربية و إثمارها للفضيلة،حتى إن الذي يفعل السوء يبرهن بفعله على نقصٍ في معرفته بالخير و إيمانه به[20].

ونحن وإن كنا نو افق على أن المعرفة وحدها ليس لها كبير جدوى إن لم يكن لها رفد من قوة الإيمان،نرى مع ذلك أن ضم العنصرين غير كاف في تحقيق الفضيلة العملية،وأن التربية الناجعة لا غنى لها عن تو افر عوامل طبيعية وعوامل إرادية،و انه لا بد لها قبل كل شيء من غزالة المو انع والعقبات من طريقها.ومن أخطر هذه المو انع البيئية السيئة والقدوة الضارة،التي لا ينكر أثرها في سلوك الناشئين،كما أن منها الميول المعارضة والعو ائد المخالفة في سيرة الناشئ نفسه.

ثم يجيء بعد ذلك عوامل إيجابية نبه عليها خاتمة المحققين من فلاسفة اليونان،ونعني به المعلم الأول(أرسطو)،حين قرر أن الإنسان ليس عقلاً فحسب،كما زعم(سقراط)،وليس عقلاً وعاطفة وكفى ،كما ظن (أفلاطون)،بل هو إلى ذلك إرادة فعالة،وعزيمة نافذة.

وإذاً فليست الفضيلة علماً و إيماناً ينزعان بصاحبهما إلى العمل مع قصور الهمة عن تحقيق هذه النزعة،بل هي عمل يبرز إلى الوجود ،ويرى ضوء الحياة فهذه واحدة .

والثانية:أن هذا العمل حين يبرز إلى الوجود لا يكفي أن يقع مرةً ،أو مرتين بل يجب أن يتكرر ويستمر حتى يصبح عادةً ثابتة،وخلقاً راسخاً،كأنه طبيعة ثابتة،فلا بد إذاً من رياضة وتدريب على العمل بما نعلم وتلك هي حقيقة التربية العملية.

وأخيراً : فليست الفضيلة عملاً آلياً تسخيرياً تمجه نفس فاعله،ويأباه طبعه،بل هي عمل انبعاثي محبب إلى القلب،حتى إن الذي يفعل الخير عادة،ولكنه لا يجد في نفسه أريحية له،ليس خليقاً أن يسمى خيراً. و إننا لنجد مصداق هذه النظرات الدقيقة السديدة في القرآن المجيد:{ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34) }النجم .{ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا }التوبة:98.{ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54)} التوبة: .{ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

20 - بحث فلسفي يذكرنا ببحث المتكلمين في المؤمن العاصي:هل تنقض معصيته إيمانه من أساسه،أم لا؟ و هل تنقله إلى الكفر أم إلى منزلة بين المنزلتين ؟.